حسن إمامي
أقفاص
رواية

حسن إمامي

أقـفـــاص

رواية

أقفاص

اعتاد على هذا الاستيقاظ. أصبح صورة سوريالية أضافها إلى صور خياله الشعرية. يوم جعل الكلام قنبلة تفجر المستحيل وتخترق رماد الصورة وتسكب الألوان على هذا البياض الذي يهدد بالسكون التام.

يفتح عينيه في جوف العتمة. لم يعد للخوف من درجات حضور أو استفزاز. زوايا الزنزانة ألفها في وحدته. يحن لها كلما أراد االاستكشاف المتجدد لدواخله. سفر فريد وفرداني لا يشاركه فيه أحد من الخلق ولو همسا أو تذكرا.

الخوف !

كلمة أزاحها من قاموسه النفسي. حتى الجرذان التي تجرؤ على الظهور كل مرة من ثقب باب أو ما شابه، تحتاط لهذا المتغرب في الظلام. ها هو يفتح عينيه داخل حلكته. راقص بهما كل صوت. ينبعث بريق قمري باهت منهما يستمد نوره من طاقة عبراته التي فقدت غددُها وظيفتَها. نحنح لاتخاذ المسافات مع الحشرات والجرذان. أصبحت على يقين بأنه يسبقها حركة وفهما وحذرا. كلهم كائن موجود. وكلهم يبحث عن الاستمرار داخله.

قد يلهو ويلعب معها، وقد يوهم الحراس بالجنون وفقدان العقل والصواب. يصدر عواءه مثل ذئب. يخترق به السكون والظلام. يأتيه نور المصباح اليدوي للحارس عبدالله، هذا الذي تعوّد على لعبة أسير يعيش درجة الجنون. وما صاحبنا بمجنون. فعلا. هكذا يُطَمْئِن دائرته بين الممرات والزنازين:

ـ ما صاحبكم بمجنون. إنها لعبة لتحدي هذا العدم. داخل كل منا ألف حيوان وإنسان واحد. هو أنا.

يضحك الكل للمفارقة والمقارنة. يستغربون لمصدر هذه الأفكار ويغبطونه عليها.

سبع سنوات عجاف مرت عليه في هذا الحبس الانفرادي. اكتشف خلالها خارطة العروق والشرايين، وتمدد عضلاته ونحافة جسده. يفجر سعاله قنبلة في لحظات الاشتعال ويتمزق به داخليا في نوبات الألم. النبضات تستنفر لحظات الشدة كطبول حرب، فيصبح العدو الأساسي ثانويا أمام احتفالية الألم هاته.

يوم أخبر بالرحيل من ذاك الجبل المنسي في القاموس السياسي والتاريخي استحضر في امتحان للذاكرة مراحل ما قبل، وأشخاصا فقد الأمل في ملاقاتهم من جديد. ذهب في غفوة مفاجئة رغم اهتزازات عجلات الشاحنة عبر منعرجات المنحدرات الوعرة. كان للجسد إخبار وإشعار. وكانت للشمس رسالة جديدة أرسلتها عبر أشعتها اللاهبة في فصل لم يتميزه بعد لعدم وثوقيته في شيء. المادة الثابتة بقيت هناك في قبو الزنزانة واللامادة منفلتة في هذه الرحلة الجديدة. إلى أين؟ لا يدري. لا يمتلك جوابا.

صوت المحرك مستمر في تزمجره. ورائحة الغازوال امتزجت مع الهواء الساخن المختلط بنقع التراب والغبار. تغيّر مفاجئ في حاجيات الاستنشاق وترتيب اليقظة والنوم والتعقل والجنون... صوت الفرامل ومنبه الكلاكسون أشعره بتداخل عوالم جديدة مع عالمه القديم. تذكر ممر الزنازين المنفردة. رجاء بعض مرافقيه وجيرانه فيها للحارس عبدالله بقراءة سورة يوسف بصوته الجميل. ابتسم للصورة وهو مغمض العينين ومكبل اليدين ومرتج فوق العجلة الخلفية اليمنى للشاحنة. حاورَ وهْمًا وفي مونولوغ سريٍّ عبدالله الحارس. أرجع له الفضل في حفظ آيات السورة. عاش عوالمها. كان يوسف بطله داخلها وكانت زوليخة أنثاه التي تخيّلها بجمالها وعطرها وفتنتها وجسدها المغتسل بماء الورد. شعرها المنسدل يكفيه كغابة يلتحف بأجمتها اختباء من كلِّ ألم ومن كل تهديد في الوجود بالألم والفناء. وعطرها بقي منذ قرون في دواخله، هو الذي يسعف خياشيمه لكي تنقذه من روائح الموت المنتشرة كألوان تنين مخترقة لكل المسالك. حينما تشع ابتسامتها داخل مخيّلته وأنيسته في هذا الجحيم، تتوارى عيون الذئاب وتنسحب بعوائها وتكشيرة أنيابها ورقصتها المستديرة حول جسده النحيف والمقرفص المتدحرج في أرجوحة حنين.

ـ تعلمْ سيد عبدالله، حينما كنتَ تصل إلى مرحلة الالتقاء بينهما، يوسف وزوليخة، كنتُ أوقف عجلة الزمن. أوقف سيرورة الأحداث والحكي. أترك ما يلي من الرواية في السورة، فأؤجّل وقوعه حتى قراءة أخرى تتفضل بها علينا. وكنت أرسم لقاء آخر أكون أنا بطله. أنا يوسفه الذي لا يرد للأنثى طلبها، خصوصا إن كانت عاشقة ومحبة ومشتهاة. ألتقيها في غفلة من الأنام وبحيطة تَقُمن بها وصيفاتها وجارياتها وكاتمات سرّها. أنوّع صور الإنجاز والمتعة والإشباع. أتورّدها وأسبح في نعيم ملمسها

النهري المنساب قُبلاً، فأجدني في ذروة الاشتهاء والتحقيق للرغبة الجنسية مستمنيا. تغمرني رائحة المني الذي يزعزع أركان الزنزانة وعطرُها يمحي تلك الرطوبة الساحقة للأحشاء.

لا أستحيي من ذكر ذلك لك، رغم أنك لا تسمعني فيما أقول. أنا على يقين بأنك ستعذرني، فعلماء النفس نطقوا بحلول للعقد، خصوصا منها كبت الشهوات. كنت أحرّر ذاتي من كل كبت، حتى الروحي منه. لكنني احتفظت به لوجداني سفرا ومغامرة وترياقا.

لا تقلق سيد عبدالله. لقد احترمت قراءتك. وكم من مرة صمدت وصبرت وذهبت مع الرواية إلى أقصاها في شرعيتها. بل إنني كنت يوسف فيها، ولكن في تلك المرات تقاطعت معه السجن والاعتقال. افترقنا في سببه ونبوءته والتقينا في البراءة منه ومن تهمته. كانت أنثايَ بريئة من حَكْيِكَ و قصتك، ومن تورطي في حماقات متابعتك.

ها أنا الآن أحفظ سورة يوسف بفضلك. لو سألوني ماذا ستسجله كحدث متميز خلال هذه السنوات العجاف لأخبرتهم بمنجزك في جعلي أحفظ سورة جميلة من القرآن، وفي جعلي أؤوّل ما شئت نظرية وتطبيقا، التزاما وانحرافا بالمعنى عن المعنى.

صوت نسوي سجّل حدث الحضور في هذه الرحلة الصباحية غير المنتظرة. وحيث قلّل السائق من سرعة المحرك والعجلات، رافقَه صوت ماعز وغنم متفرق بين الشعاب، وربما مع جنبات الطريق. سُمِع النداء الأمازيغي من أعلى، ربما هي تلة أو طلعة جبل تنحدر منه هذه الطريق. ما زلت لا أمتلك سوى حاسة السمع والشم كسلاح في تفاعله مع لعبة الوجود وعدمية العالم في محيطي. التقطتْ أذناي تامويت أمازيغي جميل. أجابها السائق بكلاكسون واستمر في رحلته. لكن الموال استمر في سقيه لخلايا جهازي العصبي وعوالم أصواتي الداخلية. حلْم جميل رافق الحدث. أنثى حقيقية اخترقت الرحلة. صوت شجي التحفت به آذاننا. منذ مدة لم يكن لنا سوى صوت عبدالله الحارس، هو الوحيد الناعم والمسافر بنا في رحلات الخيال والاستيهام من دون باقي الحراس. إنجاز اليوم طبق شهي ينضاف ليبشر بزهرات ربيع واعدة بعد سبع سنوات عجاف.

و العجلات في مضيّها كأنها تعود بالزمن إلى الوراء، إلى لحظة بداية هذا العذاب. كأن عقارب الساعة تعود بالذاكرة لكي تستحضر الحياة الأولى التي افتقدتها فعلا. هل هي عودة إلى الحياة؟ هل كنت ميتا حتى أطرح هذا السؤال الأعمى على ذهني؟ أهز رأسي تمنعا عن كل استسلام. أطارد اليأس بمزيد أفكار وخيال:

- وفاء.

- تُرى، أما تزال تتذكرني وتعترف بوجودي؟

نورالدين، عباس، مصطفى، حكيم... أسماء الرفاق في الدرب. جلهم كان حاضرا معي في رحلة السنوات العجاف. أثثتُ بهم مخيلتي وحاورتهم في شتى مواضيع وقضايا. رافعت معهم في محاكمات وهمية افترضتها لكي أجعل حلا لهذا الأسر الذي عشته مرة وحشا ومرة إنسانا. راجعت معهم محطات طلابية وعمالية ونضالية. كتبت معهم تقارير جديدة انطلقت من ذاتي أنا أولا. وحيث أصبحت الجماهير الشعبية هي خلايا جسدي المعذبة في اللامكان فقد أصبحتْ تعيش معي هذا الأسر والاعتقال.

هَوَتْ العجلة الخلفية للشاحنة في حفرة زعزعت كياني، لكنها أدخلتني في ابتسام. على الأقل هناك شيء جديد هذا الذي يقع.

مرت مدة زمنية استغرقت لهيب الشمس قبل أن نصل إلى طريق منبسطة وممتدة إلى حيث سنصل بعد مغيب شمس وغياب ضوئها المساعد على تفحص الكون والحياة. كانت شمس روحي هي المضيئة وهي المنتظرة لتوقف محرك الشاحنة حيث نُزِع الحجاب عن أعيننا وسط أربعة جدران عالية. من خلفنا باب كبيرة استقبلت عرض الشاحنة وأصبحت موصدة. وأمامنا باب صغيرة من حديد فتح نصْفها وجاء ليتلقانا منها حارس أو موظف هو في لباس كاكي وبيده ملف ورقي وقلم ولائحة أسماء. نودي على تسعتنا بأسماء. اقتيد كل من ذكر واحدا تلو الآخر داخل الفناء الجديد عبر البوابة الحديدية الصغيرة. السماء ودّعت النهار وأخذت في التحاف لون لازوردي ستؤثّثه النجوم بتدرج. ذلك كان خيالي الذي أهذي داخله كل حين. أستعين فيه بحواسي لكي تزودني بعناصر تحليل وتشكيل.

في الساحة الثانية، مصباح قوي الضياء يهيمن على زواياها وعلى الأعين التي تحاول تفحص جدرانه ونوافذه. كانت أربع نوافذ هي، وبرج من الجهة اليمنى ملتصق بزاوية

الحائط ومغطى بسقف مفتوح الحيطان على جهات جنباته وأعمدته الأربعة. تُرى، ماذا وراء هذا السور؟ أين نحن؟ لم نتلق جوابا بعد. لكن صوت النوارس من بعيد يوحي بالقرب من شاطئ ما. شكرا للنوارس.

تلقينا الأوامر من حارس يبدو أنه يحلّ في مهامه بدل الحارس عبدالله. بسرعة جاءني الحنين والاشتياق لتجويده لسورة يوسف. لكن هذا الصوت الجديد كان مستفزا وغليظا وجاهرا بالغيظ:

ـ استعدوا لأخذ حمام تتخلصون بفضله من أوساخكم وقملكم وتطهروا أظافركم وخنزكم. بعدها تنعمون بثياب جديدة وفراش ناعم جديد. هيا !

كانت الطاعة شبه عبودية لهذه الأوامر الجديدة التي وعدنا بها، تقترب في مخيال السنوات العجاف من وعد الجنة البعيد. ونحن التسعة لسنا سوى من نجوا من جحيم المرض فالموت فالنسيان.

في الاستحمام بقي صوت النورس ينقش المسمع مسجلا كائنات جديدة وعالما جديدا. انضافت رائحة الصابون المعطر الجديد عليه. قشعريرة أبدت تمثّل المسام بشكل غريب لم يعهده منذ مدة.

رشاش قوّي في دفعاته التي اغتسل معها الجسد من طبقات سميكة كانت قد حوّلته إلى صفحة خشبية غير آدمية. وكان للذاكرة أن استحضرت اسم وفاء وكأن الأنثى في كف يعادل الكون في قضاياه. كان لذلك العطر علاقة. ربما كان متلبّسا مع وفاء في ورطة التذكر. وكأنه يغسل وجهها في المرآة فيتجلى أكثر ويضيء أكثر. بدت له ملامح حسنها وابتسامتها الجامدة التي لا تبدي معها تعابير.

ابتسم لحضور الضيفة الجديدة. تذكر سكناه بالحي الجامعي. تذكر حياته الطلابية. بدأت طبول الماضي تدق مستنفرة الوعي. لابد لك أن تستجمع قوى التذكر. ستحتاج لمواجهة هذا الحاضر الجديد. حدس لم يخذله حتى في سنواته العجاف. الحمد لله أن شلال الدوش رسم لوحة وفاء. هي جنة إذن. ماثلة في زاوية من روحه. مستغربة من ذاته. خالقة الخيال والأسطورة، ومزاحِمة لمنطق وعيه وقدره الذي يريد دائمًا أن يرسمه بما يشاء من فناء أو وجود. أنت الطالبة الجبلية والمنحدرة من الشمال . أنا ذاك الطالب المنحدر من جبل النار. كانت رؤيتك جليدا جامدا محتفظا بسكون النظر محافظا على مسافة من جنون البشر. كنت طائر النار الذي ينقش بصوته منحدرات خديك فيحوّلها إلى تورّد مشتهى. كنت الجاني للرمانتين حينما حان قطافها. وكان القطاف جَنْيًا حلالا في كل الشرائع. وكانت شريعتي حبيبتي فوق كل الشرائع.

حرّرتك من أغلال الثقافة الإنسانية. على الأقل عشت معي مدينتي المثالية. كانت مدينتنا مخالفة لسحر أفلاطون. كنا نبنيها ونحميها بكلماتنا وحواسنا وبدمنا أكثر وأكبر. انتظم العالم داخلها فكان للشعوب داخلها دروبها وشوارعها، وكان لكل شهيد سكن خالد في قلب نبضها. وكنت ملكة عرشي الذي تتوجتُ به في حضنك.

بنينا مشاهد التغيير في علاقتنا، وكنت دائمًا تخذلينها بأحلام مجتمعية ومؤسساتية. تتهمينني بالمثالية الخرافية حينما تسنح لك الفرصة بذلك. تنتهزين لحظات المزاح لكي تلقي بخطاب الجد المرفوض في فؤاد مدينتي. كان المنعرج يفرق طريقينا. من منا كان على صواب؟ أينك الآن يا وفاء؟ أ تراك ما تزالين في انتظار هذا الطائر؟ طائر النار؟ أتراك جبل جليد عاد لشموخه الأبيض في انتظار بركاننا؟

العينان عسليتان. الشعر منسدل في حمرته. الجسد بض في بياضه المحمر فورة ودما. الجرأة بادية في الرغبة في الانسلاخ من كل الأثواب القديمة. القبلة عندك تعرية من كل ألوان وكل مرايا وكل صحف التاريخ التي صاغتها ألسنة البشر وحرستها أعين الفقهاء وجعلت عليها الحد سياطُ الجلادين. وما يزال في نظرك مزيد من تحدٍّ. تسارع شريط صورك مع تسارع صبيب الماء الذي يهبه هذا الدوش.

كانت خيانتي لك في بعض الأحيان مع امرأة العزيز، وكنت أطلب الاعتذار منك كل حين فأخصّص لك حفلك وحدك. أكلّله بقصيدة تجمعنا في درب النار ثم نرتمي أنا وأنت في نهر من جليد في استراحة محاربين من لجج براكين.

انتهى الدوش واكتملت حصته مع صوت الحارس الجديد الذي لا يحمل كتوقيع سوى كلماته النابية التي قد تكون جميلة في انتمائها لشروط أسْر جديدة. وهل هو أسرٌ؟

ابتسم عمران لسؤاله. كما لاستحضار اسمه في هذا الهذيان وهذا الحكي.

الزنازين الجديدة بيضاء. أبوابها كذلك بيضاء. الأسرّة بيضاء. ما عدا النافذة التي تمتلك ضوءا فضيا خاصا، وكأنها توحي بأن الخلاص ليس بياضا، بل هو ضياء لابد أن يأتي. الممرات زرقاء ومخططة بلون أحمر وأخضر. تساءلت أي فريق رياضي في كرة القدم يمكنه أن يحمل هذه البذلة. سخرت من استسلامي لمثل هذه الأفكار المبتذلة.

ـ اسمك؟

ـ عمران بن يوسف.

ـ اسم أمك؟

ـ يامنة بنت الجبلي.

ـ السن ؟

ـ لا أدري.

... استمر تسجيل المعلومات وكأنها اعتراف جديد بكينونتنا نحن التسعة. حسبت العدد والأصوات في بعض الاستراحات مؤخّرا. تعلمتُ درس الكسر والطرح. تأكدت من العدد في الشاحنة وفي الساحة، وفي غرفة الانتظار الجميلة التي جعلت لنا حنينا إلى الحياة.

جلسنا نحن التسعة في غرفة خاصة. ضمت تسعة كراسي خشبية في مقابلة مكتب صغير جلس خلفه موظف ببذلته البنية الداكنة وقبعته الشبه عسكرية. بجانبه جلس شخص يبدو أنه موظف مدني أخذ يسجل محضرا لمجريات اللقاء والتعليمات والالتزامات. وبجانب الرجل كان هناك ملف سميك يتضمن أوراق معدة للتوقيع.

ـ بسم الله الرحمن الرحيم، والحمد لله رب العالمين. لقد جعل الله لكم حياة جديدة لابد أن تشكروا الله على نعمته وتحمدوه على هذا الوطن العزيز الذي تطور وجعل لكم أملا في العيش بسعادة وهناء فيه. إن الوطن غفور رحيم. هكذا ستوقعون على محاضر تضمن لكم طريق الحرية والاستفادة من محاكمة وحقوق جديدة كذلك. سيزوركم الأهل بعدها وتستطيعون القراءة والدراسة والرياضة.

كانت الرسالة واضحة. لقد تم الاعتراف بنا كأسرى ومعتقلين. فعلا هي ولادة جديدة. أين كنا قبلها؟ في مخاض ولادة أم في موت وجحيم؟

سؤال طرحه أحدنا بين الصفوف تهكما. ابتسمنا لانتصار قدرتنا على طرح مثله تأكيدا دون حاجة إلى تكراره أمام قارئ التقرير والتعليمات. فرحنا للأمل الجديد، لكن دواخلنا كانت غادرة لهذا الأمل. وكانت البداية مع ذاتي. بدأت في محاكمة نفسي قبل أن ينقلونا إلى جلسات المحاكمة الشكلية الجديدة. رغم الفرق بين المحاكمتين. كنت أرى القاضي الجالس أمامي وأنا الواقف قبالته، في حاجة إلى ما أَنْعَمُ به إلى حدود تلك اللحظة. أمتلك وفاء وزوليخا، فماذا تمتلك أنت؟

بدتْ على محياي سخرية رافقتها ضحكة ماكرة وعفوية وأنا أسمع الحكم الصادر بدون مشورة. استغربت فقط لتفاوت العدد بيننا نحن التسعة، أهي لعبة أم استلذاذ جديد؟ كنت المحظوظ بينهم، ليس في عدد أقل، ولكن في تطابق السابق واللاحق. هنأني الثمانية عليه. رقم محظوظ وجميل. فعلا سيعوض لي رقم سبعة الجديد ذاك الرقم القديم. لكنني لست يوسف في حكيه ورؤياه. ورقمي لا يتبع خط زمن يوسف وقصته. ليت مَلَكي الحارس عبد الله صاغ القصة بما يوازي تطور قصتي أنا عمران بن يوسف.

(يوسف أيها الصديق، أفتِنا في سبْع بقرات سِمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات، لعلي أرجع إلى الناس، لعلهم يعلمون).

و ما فتوايَ أنا عمران بن يوسف؟

بعد مرور شهر تقريبا على إقامتنا الجديدة، وبعد مرورنا من هذه المحاكمة المعدّة مسبقا للعهد الجديد، وبعد توقيعنا على عدم ذكر سيرة العهد القديم ولا مواصفاته ـ وعدا منهم بتقليص مدة الحكم الجديدة وبالاستفادة من مزايا مغرية وأساسية ـ، كانت بدايات تعرفّنا على المحامي الجديد الذي هيأنا لاستقبال شروط الحياة الجديدة والذي سهر على سلامتها. وقد كنت أسأله عن حمايته كمحامٍ لنا: لنا أم لهم؟ كان يبستم ويغيّر مجرى السؤال إلى مداعبة ويجيب:

ـ ستعلم بعد مدة أنني صديقك الذي يريد لك الخير كل الخير. فلا تستعجل أمرك يا عمران.

مرت عليّ لحظات كبيرة وأنا أؤنّب نفسي على تغييب أهلي من الذاكرة. كنت أستحضر وفاء والرفاق وأغيب صورة الأم والأخت. ربما سياق الاعتقال ارتبط بأولئك دون هؤلاء. ربما عائلتي الصغيرة ليس لها دخل ولا ذنب فيما يقع. جعلتهم بعيدين عن الملف داخل الوعي وفي الفؤاد. اللعبة لا تلاعب فيها بالأمومة رغم أن الدمع كان بسقاية حنينها وعصارة كبدها.

خلال الأسابيع الأولى من هذه الإقامة الجديدة إذن، وبعد تنبيهنا للمطلوب منا توافقا قبليا من أجل تحقيق الوعود الآتية، اختمرت أمواج التذكر بين مدّ وجزر، وكأن عقلي مُهدّد بعقوبة أقسى، هي عقوبة النسيان. كان أكبر جلاّد يستطيع أن يُغيّب حقي فعلا في الإنصاف والعدالة والكرامة.

كانت حيرتي كبيرة جدا. أصبحت أعيش من جديد داخل المتناقضات. بين هذه الذات وهذا المطلوب، أتساءل:

كيف لي أن أنسى وقد راجعت ملفي وقضيتي في ذهني، وفي بعض الأحيان رافعت أمام الجدران المحيطة بكياني حتى لا أنسى، حتى أعطي شرعية لوجودي واستمراري، حتى أنتقم من وضع الجحيم وممن وضعوني فيه... كيف لي أن أنسى؟

و بدأت رحلة تذكر جديدة داخل السنوات السبع الجديدة لِما سبق من تلك العجاف:

كنا أربعة عشر طالبا، نُشكّل فصيلا طلابيا، ننتقد السياسة ونفرض البديل نضاليا داخل الحياة الجامعية. كنت بطل رفيقتي وفاء التي شربتها مَصَبّا، وكانت هي نهري الذي يسقيني بقوة هديره لكي أستمر في كلام السياسة والثقافة. أسوار جمهوريتنا لا حدود لها. نُرسل البيانات التضامنية للحركات الثورية ولموجات الاحتجاجات العمالية والحزبية عبر بقاع العالم، وكنا نتلقى الردود والتأييد والتشجيع. كنا نقرؤها أمام الملإ. أمام الطلبة الذين نجعلهم رفاق جمهوريتنا. وتكبر قضيتنا كما تكبر شرعيتنا وجمهوريتنا المنشودة.

لابد لي أن أسقي روحي بعيون وفاء وأنا واقف داخل الحلقة الطلابية في تسيير أو في تدخل ومناقشة. كنت بطلها الذي يتضخم برؤية اندهاشها وإيمانها بخطابي وحماستي. وكان الاندهاش يغمرها وأنا أُبدي استعدادي للتضحية ولأموت شهيدا ولأقف في وجه البارود وفواهة الدبابات. ألم يكن شعارنا: بالروح بالدم نفديك يا فلسطين؟ لن نركع أبدا لن نركع، لن يرهبنا صوت المدفع؟

ياه، قوة وشجاعة بقينا معهما صامدين. يوم الاعتقال المفضي إلى السنوات العجاف، كان صيفا حارقا، وملفاتنا وصلت بتقاريرها إلى جهات عليا فاتخذت مسارها مع قراراتهم. الظرفية كانت حرجة وخطيرة. الصراع في أوجه بين معسكرين وبين نمطين في الحكم لا نؤمن بثالثهما بل نعتبره مراوغة ضد الجماهير الشعبية. نهاية عقد السبعينيات من القرن العشرين. هي سنة 1979. غشت، شهر الهروب من اللهيب القاري. لكنه شهر انعقاد المؤتمر السادس عشر للاتحاد الوطني لطلبة المغرب. فبعد أن انتهى المؤتمر، قررنا مناقشة نتائجه وسياقاته. اخترنا الجبال الأطلسية للاحتماء والاختباء، خصوصا وأن جلنا كان مبحوثا عنه ومطلوبا كضيف في مخافر الشرطة سرية كانت أو رسمية. كانت الفترة بين رفع الحظر عن منظمة (أ.و.ط.م) وتنظيم المؤتمر تمتد لثمانية أشهر تقريبا، بين نونبر 1978 وغشت 1979. رُفِع شعاران مختلفان. الأول يريد بناء المنظمة جماهيريا ثم تنظيميا. وهو موقف التوجه الديمقراطي. أما الثاني فقد طالب ب(هيكلة المنظمة أولا وبناء الجماهير ثانيا).

كنا نؤمن بأن العمل السياسي عمل نضالي يعتمد على القواعد وعلى إرادة جماهيرية. لذلك كان يهمنا تحقيق القناعات وتعميق الوعي وتجذير الصراع الذي نؤمن بشرعيته التاريخية والنضالية العادلة.

مرت إضرابات تلك السنة قوية وواعدة بمطالب سياسية ونقابية وثقافية. تصعيد يوازيه تصدع في بنية النظام الحاكم وفي قبضته التي يريدها ضربة قاضية لكل معارض أو مخالف. كنا ننتقد المحاكمات الشكلية وندين تلفيقاتها، لكننا كنا كذلك نخشى أشكال التصفية أو الإخفاء والاعتقال السري. كان عمق التحليل النفسي الذي درسته مفتاح تأويلي لسادية الجلاد واستلذاذه بالتعذيب للضحية، ونشوته بإخفائها

لأشكال عذاب جديدة. أسعفتنا روزا لوكسمبروغ وغيرها بمفاتيح العلم والسياسة، فكانت حقنتنا التي لا تصهرها مضادات الإعدام.

كان المنزل الجبلي مطوقا بالعسكر وشرطته يوم اعتقالنا. مروحيةٌ وقد شرّفت مجمعنا ومخيمنا، استضافَتْنا في رحلة جوية ونحن مكبلي الأيدي والأرجل، ومغمضي الأعين، ربما في رحلتين باعتبار عددنا وباعتبار عودتها من جديد لمكان تنزيلنا وضمّنا في دائرة عارية تحت أشعة الشمس تفهم لغتَها جماجمُنا الملتهبة بحرّها.

لم نحاكم. لم يتم الاستماع لملفنا ولا لأقوالنا. لم نكن نرضى بالتناول للمحاكمة. كان عنادنا موقفا رافضا واختيارا بين تحقيق مطالب نضالاتنا وبين الموت شهادة. لكننا لم نمت، كما أننا لم نعش كذلك. وكانت رحلة السراب والعذاب. سبع سنوات استطاعت أن تنال من صمودنا. أصبحنا نؤمن بمناقشة وضعية أسْرِنا حقوقيا. نأمل في محاكمة عادلة وفي مرافعة تضمن لنا كرامة واعتقالا مشرفا. لكن درس السادية كان أكبر مما حلّلناه. تَمَّ نسياننا فوق كومة تراب وبدأ جلنا في دوار ومغص ومرض. اعتقدنا أنه شكل إعدام جديد يمارس. وفعلا، مات أحدنا داخل الدائرة التي استضافتنا في الخلاء لمدة أيام متتابعة. بقينا ثلاثة عشر في العدد. سمعنا وقع الحفر بالفؤوس خارج الدائرة المفترضة بالحصار الذي نستشعره هندسيا.

كان صوت الشاحنة التي أوقفت محركها ونثرت غبار عجلاتها مزكمة أنوفنا برائحة الغازوال الثقيلة، منبهة لبداية رحلة جديدة استغرقت سبع سنوات عجاف.

لم أجد فرصة لأشرح فيها كل هذا لوفاء، لكي أبين لها صمودي وثبات عقلي على مبادئي وتحليلي. كلما ادْلَهَمّ الكون في عتمة ثقوب سوداء لكي يبتلعني، انبعثت مضيئة داخل أغواري وردةٌ أقحوانية تشرق من جوفها ظمآنة صورةُ وفاء.

و يريدونني أن أنسى. فلمن سأحكي كل ما مرّ؟ وماذا سأقول لوفاء عن بحر غيابي وعن يمّه؟

مرت سنة ونصف على إقامتنا الجديدة. أصبحت أشعر بالتميز والرقي الوجودي بعد أن آنست حياة جديدة فيها شمس يومية من أجل الاستحمام ودوش أسبوعي من أجل التنظيف ولباس شتوي وآخر صيفي. فيها أكل منظم في أوقاته وزيارات للتفتيش تضمنت احتراما لأشخاصنا رغم أنها كانت جافة في مادة الكلام إلا ما قلّ ودلّ. صرامة نبّهتنا إلى أن المطلوب منا تعلم الصمت والطاعة وعدم الاعتراض حتى على الابتسامة المقيسة بحجم اللحظة والكلمة وبمشيئة مخاطِبنا الذي سيصبح مدوّن أقوالنا ومجدد توقيعاتنا على التزاماتنا المكتوبة وحسن سيرة أفكارنا.

آثرنا قَبول هذه اللعبة في انتظار الآت. على الأقل أنها أحيت بعملياتها المنطقية وتعابيرها اللغوية عقولنا وذكاءنا بالمقارنة مع درجات وصولها إلى بدائية التفكير وغرائزية التحقيق ووجودية المقاومة وحلْم الحياة.

ارتجّ العالم الخارجي في صخب قضيتنا وملفات الاعتقال القسري والسري والاختطافات والاغتيالات، وكنا نحن أبطال الفيلم السينمائي الذين ينتظرون الأدوار المقبلة. ممنوع علينا أن نشارك الجمهور في الانفعالات وردود الفعل. ممنوع علينا أن نبدي برأينا السياسي والقانوني والحقوقي فيما وقع ويقع. نحن قفص الاتهام وموضوع الاشتغال.

كان لمحاميّنا ولكاتب التقارير في حضرته دور كبير في تهييئنا لهذه المرحلة الجديدة. حصلنا على كتب محددة من أجل القراءة، وعلى وعد بمتابعة الدراسة. بعد رجة البرلمان التي زوبعت جبل الخوف الراكد بركانا في قلوب شعوبنا والتي صرخ بها انفجارا مستأسدا بصوت حمام وديع في هديله، هو سحر السياسي بنسعيد أيت

يدّر، انقلبت معاملتنا إلى متناقضات غريبة. أبدت إدارة السجن من خلال تنفيذها للتعاليم والأوامر صُوَرَها مرةً في الرغبة في تصفيتنا وإعادتنا إلى جبل الموت وقبو جهنم داخله، وفي بعض المرات في الرغبة في التخلص منا ورمينا إلى الشارع خارج الأسوار، وفي لحظات تعقلها وهدوء خطابها تكون الوعود بمزيد من الحقوق داخل وخلال إقامتنا الجديدة في مؤسستها.

وصلتنا رسائل خفية أثبتت ما دار في قبة البرلمان. عززتها شهادات خارجية أثارت ملف الاعتقال السياسي وجحيم تازمامارت. كانت مجموعتنا مرسولا بين عالمين او عوالم. فنحن من أسرة تازمامارت ونحن من سبق نقلهم إلى سجن مدني، ونحن من بدأت معهم سياسات تجريبية في التفاوض وانتزاع التنازلات والتصريحات.

ها نحن أصبحنا بوفرة أحداث وتفاعلاتها نشعر بالانتماء لعالم الأحياء. استغربنا حينما سألونا عن شخصية بنسعيد أيت يدّر. بعضنا لم يكن يعرفه أو إنه سمع عنه وسجّله في ذاكرته ومخياله كمناضل حكم بالإعدام مرات متعددة. لكن ماذا أصبح وما الذي صارت إليه أمور السياسة معه ومع وطننا خلال مرحلة اختفائنا عن لعبة الحياة، لا أحد منا علِم بجواب يشفي غليل المستجوب وكاتب التقرير خلال الاستجواب.

ـ ما علاقتكم بتنظيم 23 مارس؟

ـ لا علاقة.

ـ مواطنون في خدمة الوطن.

ـ عدالة مطلوبة في الحركة.

...

ـ هل تواصل معكم بنسعيد أيت يدر ونسّق معكم قبل مجيئكم إلى هنا؟

ـ لم نأت إلى هنا مباشرة. كنا منسيين في جبل منسي.

ـ هذا ليس بالجواب المناسب. تعلّم أن تجيب بمختصر القول بدون زيادة أو نقصان. مثلا قلْ: لا علاقة. فقط. واضح؟

ـ واضح يا أستاذ.

و أصبحت لنا حكايا مفترضة. كما أصبحت لنا مكتبة خاصة ومشتركة. تعلمت من خلال كل هذا أن أرسم الهدف الآتي مباشرة بدون التفات لشيء آخر. كتبت طلبا خطيا ألحّ فيه على العودة لمتابعة الدراسة الجامعية. كنت في سنتي الجامعية الأخيرة. ويا ما كررت مستويات دراستها السابقة. كنا نرفض اجتياز امتحانات نهاية السنة حتى لا نخرج من الحياة الجامعية ومدينتها. حققت ذلك التحدي مرتين على الأقل. أنجح في الامتحانات الكتابية وأرفض اجتياز الأخرى الشفوية. يرسل الأساتذة الرفاق إلينا طلب الاجتياز للامتحان، تمهلنا الإدارة يوما أو يومين، نفسر ذلك بإرادة التخلص من نضاليتنا. نرفض النجاح وفاءً لمدينتنا الجامعية ولفصيلنا وجماهيرنا. لا زلت أتذكر بأنني في مرة كانت عندي رغبة في النجاح ولكنني حينما رسبت أرجعت الأمر إلى رغبتي في البقاء الخالد داخل الحرم الجامعي جنة النضال وشيوعية العيش الوجودي والفكري والسياسي. تلك قلعتنا التي نواجه بها العالم. ولابد لكل إنسان من تناقضات يكتشف من داخلها سر اختياراته ويقيس درجات رغبته في الاستمرار داخل جدلياتها ومواقفه وسلوكاته داخل تفاعلاتها.

بعد سنتين من إقامتنا ضيوفا على سماء النوارس هناك، على ضفاف مسموعة الهدير، نلت شهادة الإجازة في الفلسفة. بعد سنة من ذلك أصبح لنا اعتراف في

الخارج. أصبح العالم يعرف بوجودنا. هؤلاء الذين كانوا مختفين، ها هم قد عادوا للحياة وللرغبة فيها. أما من مات فرحمة الله عليه. أو ليأكله الطير في رحلته.

و أصبحت الزيارات اختبارا شقيا وسعيدا في آن لقلوبنا. أيقظت المواجع فعلا. انهارت النفسيات مع نزع أسلاك الاعتقال الشوكية من عمود صلبنا. بكى كل طفل في دواخلنا ونعى كل واحد منا الأموات سواء من داخل مجموعتنا أو من مجموعات أخرى أو من أهلنا الذين عاشوا مرارة الغياب. أنظر إلى الجدار المجير من جديد وأخاطبه محاكما لبياضه الأعمى. وما كنت أجلد سوى نفسي في هذا العتاب.

-

تركتُ خلفي داخل أسرتي التي أنتمي إليها أمي وأختي. أسرة بسيطة تعيش داخل مدينة تقليدية صغيرة. يتجاور داخل أسوارها وبين دروبها ويتعايش الناس بما أوتوا من قوة لمقاومة ظروف الفقر والحرمان والجهل. من كان يملك الجاه كان ينقصه العلم، وهو يلتقي في ذلك مع الفقير المعدم من علم وجاه. يتقاطع الجل ظروفا تجعل عدم استغناء هذا عن ذاك ضرورة عيش متكاملة. وحيث يرسم كل واحد منهم كرامته ويقوّيها، كنت أنا من بين الذين شقوا الطريق بحظ قدَرٍ نجّاني من الانقطاع عن الدراسة والارتماء في حرفة من بين حرف كثيرة وعدتني بها العطل المدرسية التي رافقت طفولتي ودراستي وشبابي الأول.

كنت المتعلم عند الخياط والمساعد عند النجار والمسخّر عند الجزار والنادل عند صاحب المطعم الشعبي. كنت الكادح الذي يخرج في الصباحات الشتوية وبالكاد استقوى عودي في العاشرة من عمري لكي أعمل في جني الزيتون مع الكبار والصغار، النساء والرجال. في الصيف تكون الرحلة مع البساتين وجني الفواكه الشهية كالإجاص البلدي والبرقوق بألوانه وأصنافه والتفاح اللذيذ الذي تهبه لنا عيون الجبال والباكور والتين...

أمي كانت المسؤولة على تربيتنا أنا وأختي. تعمل في البيوت وتصبن الزرابي والأغطية في الوادي قرب منابع العيون، حتى في فصل الشتاء أتذكر بأنها كانت تأخذني معها طفلا لجنان الزيتون كأنني أتهيأ لكي أصبح جانيا له في خدمة ملاكيه، الكبار والصغار. أما أختي فقد كانت الملاك الذي صنعت له أمي هودجا يليق بمقام تهيىء راحته

وتحضيره لحفل متميز سيكلل بزواج ينقلها إلى بيت جديد وينقذها من جحيم كدح وحرمان وعذاب بحث عن قوت نادر وعزيز.

و تجترفني الذاكرة أنا طائر النار لكي تحرقني بنار أكبر وبألسنة لهيب زرقاء تفوق ما يشتعل في كياني السياسي من لهيب أحمر اتخذته رمزا للنضال داخل حركية نضالية عالمية تمتد بين الصين وشرق أوربا إلى أن تصل إلى أمريكا الجنوبية وكوبا... كان افتراض الاختيار داخل قدر الأحداث يعذبني كلما اشتقت عاطفيا لحنان أمومي وأُسَرِي بريء وطاهر وعذري في دواخلي.

اصطنعنا سلاحا لمواجهة هذا الضعف. بل لنقل كان فلسفتنا لتحدي نقاط ضعفنا ولحظات وهننا. جعلنا افتراض تعدد الاحتمالات في محطات الحياة الماضية تهديدا لثقافة رجعية تريد النيل منا في خفائها الشيطاني. لا تراجع للوراء. هدفنا مستقبلي وجنتنا الأرضية مستقبلية. لنُسابق الرجعية بفكر تقدمي يبحث عن هذه الجنة الأرضية بدل انتظار الأخروية. لنُحَرِّرْ النفوس ولنبدأ بذواتنا من أجل هذه المهمة الصعبة. وها نحن في مهامنا العسيرة وفي امتحاناتها التي اختارت لنا الأسر والاعتقال وأشكال التعذيب التي تفنن الجلادون فيها إسوة بأقرانهم داخل الأنظمة المستبدة.

كنت أريد أن أجعل الدمعة التي تنحبس فوق مقلتيّ قنبلة أقذفها شرارة في وجه كل مغتصب ومستبد. لكن قلبي كان يذكرني بأنها دمعة اشتياق لأمومة وأخوة، اشتياق لحبيبة ونعومة. أنت إنسان يا عمران. أنت مشاعر وأحاسيس. لست وحشا في الخلاء والبراري. لقد أرادوا منك أن تصبح وحشا، وحينها ستكون لهم شرعية جاهزة من أجل نَحْرِك والتخلص منك. احتفظ على الإنسان بدواخلك. ستحتاجه لما سيأتي من أيام. ربما إذا عدت للحياة.

تعلمتُ رياضة جديدة كلما غلبتني مشاعر رقيقة. أرسل الدمعة والدمعتين ثم أوقف العملية تحقيقا للتوازن بين الضعف والقوة، بين العقل والعاطفة. أقلّب الذهن لكي يشتغل ببحر الفلسفة والسياسة والتاريخ وحياة الشعوب حتى لا يسقط في متاهة ندم يرفض سياقه. وكان حراس السجن يحارون وينبهرون لِمَا يتجدد على لساننا من خطاب وكلام. يستغربون لكون هذه الواحات من الأفكار تنبت في صحراء السجن وقساوة مناخه ونضب ينابيعه. وهم لا يعلمون بأن الجنة الخالدة قد سقيناها في عقولنا وأسكنتنا في جنانها أمنا الفلسفة.

سيأتي اليوم الذي سنخرج فيه من هذا الاعتقال. سيسألني البعض عن الرغبة في معاودته تعبيرا عن شجاعة واستمرار في النضال. ربما سأقف ناظرا له بطرف العين ولمحة بصر غير راض. ما الفرق بيني وبينك؟ لماذا لا تدخل أنت غمار التجربة؟ لكل عصر قضاياه وجنوده اللائقون لمعاركه. فلماذا لا يتجند كل جيل لمهامه؟

هذا السؤال الأخير استفزني داخليا. تُرى، هل انتهت مهمتنا وصلاحيتنا المجتمعية والسياسية؟ هل وجب التخلص منا كما تم التخلص من معتقلين آخرين طيّاً لصفحة تاريخ وبدءاً بأخرى، وليتحمّل كل جيل وكل معني مسؤوليته فيما يقع حوله ومعه؟

استدرتُ أرتّب الغرفة ومحتوياتها المادية القليلة، خصوصا وأننا حصلنا على ميزة جديدة ننعم بها في سنتنا الثالثة في جوار صوت النوارس، إنها نعمة المراسلة المراقبة. وكأن أرواحنا مستعبدة ومتحكم فيها. رغم أنني لم أستسغ وجود جهاز مراقبة على مشاعري لم أجد بديلا أفضل. راسلت أسرتي الصغيرة بالبلدة. وراسلت وفاء. تلقيتُ جوابا وردا من الأولى، بينما لم يأت خبر عن الثانية. أقواس جديدة فتحت داخل هذه الأقفاص التي أعيش فيها.

ما أُدركه من الزمن والتاريخ، هذان اللذان عشتهما فردا وترا وجماعة، حياة حرية في الخارج، واعتقال وراء القضبان. هذه حقيقة مادية. يقينٌ تام. أعيشها بوعيي الذي يفصل بين الحق والباطل. لكن ما بينهما حياة خيال أخلقها وأبدعها حتى أصفُوَ فوق هذه الحال. قد أكلم الأشياء. قد أتنبّأ بوقع الخطوات أو بالظل الذي يستبق صاحبه أو بتأويل ما وراء الخطاب.

كنت أردد قصائد أعتبرها دستور نفسي الداخلية. أنظم بها مجالات لاوعيي حتى أُعيد توازنا منشودا. كانت بياناتي الخالدة التي أقرؤها على مسمع الكل. وأُضيف:

تحتاجون إلى كائنات ملائكية؟

إليكم المهدي وسعيدة.

و كل من مات على قضية.

أما الأحياء

فانتظروا ساعة تحين.

علّهم قديسون

و علّهم باعوا نبتة الصبر مقابل أصفاد ترويض.

نهاية الثمانينيات وأنا حاصل على شهادة إجازة. أخيرا اعترفوا بنا كمعتقلين سياسيين وأصبحنا نسمع بسنوات الرصاص وكأنها إنشاء للتحرير من أجل الحصول على نقطة جديدة وملاحظة حسنة من المعلِّم. أيّ رمز لهذا المعلم؟

تابعت قضايا الاعتقال. تقارير أفادنا بها من التقيناهم من معتقلين ومحتجزين. واكبنا درجات الصمود على المواقف السياسية والاختيارات الجديدة فيها. جلدنا أنفسنا بالنقد الذاتي وكأن سياط الجلاد المادية ما كانت تكفي لأجسادنا وأرواحنا. كان لزاما علينا أن نجدد الحياة بهذا الصراخ الداخلي وهذه الجدلية التواصلية بيننا كرفاق داخل السجون. ننتظر ممن في الخارج السمو بالنضال لكي يبرهنوا لنا على نجاحهم وعلى صدقهم بالأساس. وكأننا نريد من الكل أن يكون معتقلا ونترك الجلاد بمفرده يمسك بالسياط فلا يجد من يجلد في الشوارع ولا على من يتجسس في البيوت. حوّلنا العالم إلى مائدة مستديرة نجلس من أجل تشريحها وإعادة وصفاتها وتركيباتها ومساراتها في أحشاء التاريخ. كانت ثقافتنا الجامعية في السبعينيات يوما بألف عام. أدركت من خلالها قيمة ليلة القدر في أن تكون خيرا من ألف شهر. بفضل الحارس عبدالله أصبح النص الديني رفيقي الروحي والصديق. على الأقل هناك هذا المشترك بيننا وهو الرغبة في تحرير الإنسان من أغلال. هو يبحث عن الأغلال الروحية وأنا أبحث عن الأغلال المادية. هو يتهمني بالكفر بمعتقداته وأنا أتهمه بنكران حق الكادحين، بتأجيل طلباتهم إلى ما بعد الموت. لكن قضايانا عادلة في نهاية المطاف. والجدل اكتمال بعد صراع.

أدحرج صَحْنيَ الأبيض المقعر داخل زنزانتي فيوقع أصواتا مختلفة وذات صدى سمفوني لهذا الإسمنت الذي يحتضنني. أجعله كرة ألاعبها وأحاورها. عنصرا وسببا في المشاكل وفي التسبب بما سيأتي منها سواء من جيراني أو من الحراس الذي يتوعدون ويسخطون وينهرون. وكانت احتفالياتي بهذه القضايا المتجددة على الأقل، أستشعرها وأعيها، أتفاعل معها ماديا. لا يمكن لليوم أن يمر رتيبا. أعتبر ذلك موتا مقتطعا من الحياة. كفانا موتا وإقبارا. سنعيش أفضل منهم.

في سنة 1991م، بورك لنا بتهنئة الإفراج عنا كمجموعة منضبطة وملتزمة بما تم الاتفاق عليه. في ربط الأسباب بالمسببات المحددة. في اختصار عبارات التحليل. في طيّ الصفحة واعتبار المرحلة الجديدة، والوطن الجديد.

مرحلة لم أر قبلها وفاء. لكن التي كانت تزورني، مع بعض الرفاق خلالها، صديقتها في الدراسة الجامعية: نادية. ثلاث سنوات كانت فيها هي زهرة الربيع التي أستنشق من خلالها عبق العطور وأغوص معها في تلاوين الجسد الأنثوي الحقيقي.

نادية التي كانت مرسولتي ومنسقة علاقاتي وارتباطاتي الخارجية، جعلتني أصبح الطفل المدلل الذي لم ينعم بدلال في طفولته،، فكانت تعوّضني عن شتى حرمان وتخفف عني شتى آلام. إنها الملاك الذي بعثه لي القدر وإن كنت بعقلي لا أفهم متغيرات المواقف ومصير العلاقات الإنسانية.

في خارج أسوار السجن كانت صورتها ترتبط على صفحات الجرائد وفي الحوارات والتقارير الصحفية بالحديث عن عمران بن يوسف هذا القابع في سجن مركزي ضيفا على ظلال النوارس.

في إحدى الصباحات المشمسة التي أصبحنا ننعم بطاقتها وفيتامييناتها داخل ساحة السجن، كنت أمارس جنوني المرتبط بجلسة التأمل واليوغا. كانت الجماعة تتفاعل مع المسألة بنوع من المزاح كما بنوع من الإمتاع والمؤانسة. وطبعا تدرّج قبول ما أقوم به من شجب وإنكار، لكونها طقوس روحانية بعيدة عن الواقعية والمادية الجدلية التي تبني وتضبط عناصر الحياة والفعل والقوة والتغيير. وانتقلت درجات التقبل في جعلها اقتطاعا لحق في التصرف الفردي الاستثنائي في ظرف الاعتقال. وقد خلق الأمر نقاشا ارتبط بإيديولوجيات وفلسفات... لكنني حينما كتبت عن التجربة قصة قصيرة وعملت نادية على نشرها بالجريدة التي تعمل بها كصحافية، تحوّل اعتبارها إلى طقوس أديب ومناخ كتابة تسبقها لحظات جنون خاصة... تابعت تغطية ومناقشة كل هذا وذاك، واعتبرته استفزازا لمزيد من التفاعل في قضايا ولو مفترضة، ولو مفتعلة، لكن الأساسي فيها عندي كان أن نحافظ على نبض الحياة، تلك التي يفتقدها من وضعونا بين هذه الجدران والأسوار.

مرّت عشر دقائق على جلستي المتربّعة في زاوية من الساحة المربعة. ولّيتُ ظهري خلالها للشمس فكنت أدرك الشرق من الغرب. أتلقّح بأشعتها تضميدا لضلوعي التي أنهكتها الرطوبة. كانت الزاوية دون تلك التي يعترشها برج المراقبة.

تحلّق النوارس فوق سمائنا المحدودة المجال. تسترق وقع خطواتنا وحركاتنا وروائحنا ربما. كنا نشبهها في ألوانها. فقط أن اللون الرمادي كان يقوم بغزونا متدرجا كأنه يقودنا إلى موت بطيء بينما لونها يبعثها لمعانقة السماء والتحليق. قد تقف على حافة

الأسوار متجسسة ومطلِعة. لا يلومها الحراس على ذلك الفعل. قد تنزل في لعبة ملء الفراغ في الساحة بينها وبين هذا البشر. قد تعلمنا كيفية الحرص على القوت والخوف من ضياعه أو سرقته. فكانت تسرق بعضه فتبعث فينا السخرية من ذواتنا وضعفنا. كنا نواسي الضحية ونخفف عليه بالقضية الأكبر والسرقة الأكبر: كنا نسيّس العلاقة مع النوارس.

لكن ذلك الصباح ذكّر الرفاق بقصص الأنبياء وتسخيرها الحيوانات لخدمة البشر. أصبحتُ أنا النبي سليمان والنبي إبراهيم وقسْ على ذلك معجزات. انتقلتُ بعد الدقائق العشر الأولى لأقابل أشعة الشمس حتى تتلحّف بها صفحة وجهي. أغمض عينيّ وقد أفتح إحداهما تبصّرا للمجال. يدايَ ثابتتان فوق ركبَتَيَّ، رأسي مطأطأ، والتعليقات ما تنفك ساخرة ومرافقة لمسمعي. أختبر التحدي والمقاومة بين الابتسامة والتجاهل. وأؤجل الرد بعد وجبة الاستحمام هاته.

بعد مرور أربع عشرة دقيقة أدركتُ أن أشعة الشمس يحجبها شيء ما. أتمايل برأسي يمينا وشمالا فيتمايل معي الظل مرافقا. كنت أريد أن أن أكتشف سر ذلك وأنا مغمض العينين، ربما شيء فوق مادي خارق للعادة يقع في طقسي الصباحي هذا. لاحَظَ البعض تمايُلِي. علّق آخر: أصبحت في جذبة صوفية. فتحتُ عينيّ اليسرى بالكاد مواجها قرص الشمس فلاحظت أن نورسا يقف فوق السور مسهما نظره تجاهي وقافزا في تراقص مع حركة رأسي والغريب العجيب أنه ماسك لسمكة سردين في منقاره... بعد هنيهة وتلويحة خفيفة بأصابعي دون معصمي الثابت فوق ركبتيَ اليمنى رفرف بجناحيه وطفطف واقترب قاب مسافة أو أدنى فألقى السمكة أمام جلستي وعرج مزقزقا ومتوجها إلى السماء وكأنه يريد أن يطلّ علي من أعلى ويرسل رسالته الآمرة في تقبل القربان الموهوب، وكأنه الملاك المرسول لهذا الجالس المعلول.

لحظتها اتحد الحراس والمحروسين في تعابير اندهاش واحدة وابتسامات مشتركة واحدة. لحظتها اكتشفت أن جمال الحياة وسرّها هو لنا جميعا، يكفي أن نزيح الأبراج ونهدم الأسوار ونجعل الأرض عرض السماء في الحب والحياة والعطاء.

نُشِرت القصة في ملحق ثقافي لجريدة اشتغال نادية. حملتْ عنوان (النورس وعمران). كانت بداية بلية الكتابة والنشر. على الأقل كسّرت سياج قفص من الأقفاص. حرّرتُ خيالي وعقلي وقلمي وبوحي. وتلك بداية واعدة.

بين وفاء ونادية خط ثقافة وتاريخ. صداقة انبنت على ابتسامة واكتشاف أنثوي وتواصل إنساني وثقافي طلابي. حينما ولجتا الجامعة معا آتيتين من مدينتين متباعدتين لكنهما ملتقيتان داخل جيل تجاوز عتبة المجتمع وانتمى إلى المدينة الجامعية، كانت حياتهما الجديدة محك كل شخصية تريد الرقي بالعلم والمعرفة. وفاء تحدّت وسطها المتشدد ورقابة المدينة الصغيرة المتحكمة في سلوك الشخص اليومي. مدينة تراقب بمعايير الأخلاق والدين والأصول، تجعل لكل فرد عبئا أسريا عليه أن يمتثل له ويترجمه كفرد وكمرآة في السلوك العام والشارع والمشترك للعيش الإنساني، كالعصفور الذي حرّر من قفصه، كانت له مناعة ثقافية، لكنها تخبئ رغبة في الانحلال من قيود كبلت النفس وقمعت الشهوات.

رغم ذلك كان تحررا واقعيا يحترس من الخيال والسفر الطوباوي في الحلم خارج الحياة الموضوعية والممكنة. كانت وفاء مرآة تعكس مجتمعها وتحافظ عليها. رغم أننا ترافقنا لمدة ثلاث سنوات، إلا أنها كانت كافية لكي تبين أية شخصية هي وفاء. تحدّت أعراف مجتمعها نعم، لكنها تحدّت خيالنا ومملكتنا السابحة فيه كذلك. قاومت كل حيلي وتحاليلي وتحدياتي وتصريحاتي وبياناتي ضد المقدس والطابو الأخلاقي المجتمعي. رفضت فكرة فض البكارة. قاومت بالعنف المضاف لحظات استغلال الضعف المشاعري الذي تخلقه الشهوة والشهقة. تخاصمنا وتجادلنا وصرخ كل منا في الآخر. لكنها بالموازاة كانت الساحرة في طقس الممارسة الجنسية وتصعيداتها المتجددة كل حين. كانت دروسي الجديدة التي أخرجتني من طقوس البداوة والعنف الأبيسي القابع في اللاوعي وفي تصوره للمرأة وللعلاقة معها، وكنت تلميذها الخاضع والمطيع.

أنا الزعيم في حلقة النقاش وهي المتابعة لتحليلي وردودي ونقاط النظام التي أخترق بها بناء الخطاب عند الفصائل الأخرى وداخل خلايا التنظيم والفصيل الذي أنتمي إليه. واكبت جذرية التحليل ومنهجيته التي بنت وعينا، وكانت هي التي تستبقنا للنقد من الداخل لنسق التحليل. كنت أتهمها بالانزلاق مع ثقافة الغرب والإمبريالية اللبيرالية، خصوصا مع تخصصها في الآداب الإنجليزية. أعلق على دراستها لآليات العمل الديمقراطي داخل المملكة المتحدة أو الولايات المتحدة الأمريكية. تتفق معي في شكل الانتقاد لكنها تخالفني في قيمة التجربة.

ـ أظن أنه علينا أن نجرب مرحلة تاريخية مثل ما جرّبه الغرب وبعدها نحكم ونختار ماذا نريد. نحن متخلفون تاريخيا عن الحرية والديمقراطية...

كنت أرد عليها وما أزال مقتنعا بردي رغم أنني أصبحت لا أفرضه على أحد، رغم أنني الآن أحترم رأي الآخر، فربما كنت أو أكون على خطأ:

ـ الديمقراطية حيلة البرجوازية للتحكم في الطبقة العاملة.

تبتسم أو تضحك وتقوم برشوتي بقبلة قبل أن تجيب. تعتبرني مبتدئا في السياسة.

ـ عجيب. هكذا أرد عليها. وأنا القائد للفصيل في الساحة والمعلن للبيانات والرائد في اتخاذ القرارات. أنا نجم النادي السينمائي وثورته في التحليل. أأنا المبتدئ رغم كل هذا؟

ـ نعم يا نور عيني. النضال الطلابي ليس هو الممارسة الفعلية للسياسة داخل المجتمع ومؤسساته.

تلك جدليتنا وعشرتنا خلال الحياة الجامعية قبل الاعتقال. بعد هذه المدة من الغياب، لم أجد من أجادل بنفس الحدة. غابت وفاء أو غبت أنا، أو غيّبونا. سبع سنوات زائد خمسة. ها هي نادية تقف داخل الصفحة الجديدة بدل وفاء. ولكن، نادية وليس وفاء؟

تأتيه نادية بخبر سار مرتبط بطلب مزيد من قصة النورس وعمران. يتشوق القارئون لمعرفة المزيد عن هذه العلاقة الغرائبية القائمة بين الحيوان والإنسان. يضحك عمران بمرارة لِمَا تم طلبه. يتأمل بحسرة الكلام في ذهنه ويبتسم ابتسامته الجامدة والتي لا تختزن الأسى النفسي لصاحبها في الداخل. يجعل عينيه توقعان نقطة ضوء فوق الأرض فلا يرفعها إلا أدبا لمحاوره وكأنه الخجول المستحيي من النظر للآخرين.

تلك القاعة التي جعلته في زاوية منها جالسا أمام زائرته المعتادة، استطاع خلالها أن يألف صورتها وصوتها، وأن يلامس يديها وأناملها ويسمع لتأوهاتها الأنثوية الجائشة والمطالبة بشيء أكثر في نبرتها المتوسلة.

ترتسم في مخيلته حينما تنتهي الزيارة صورة نادية. تنطفئ أنوار الزنزانة وبعض الممرات فلا يبقى إلا ضوء خافت بعيد وراء الأبواب الموصدة من فولاذ وبالحديد والأقفال، ولا تبقى من ألوان سوى صورتها الممتزجة بصوتها ورائحة عطرها ولباسها الذي يشكل هيأتها.

يرى فيما يراه غير النائم أن عينه اليسرى ترتعش والأخرى تنعم لما ترى. يحملق في الظلام بالأولى فتأخذه تنهيدة وزفير. ماذا ينتظر الناس من قصته والتي أهداها للنورس تحية لحرية تحليقه؟ ما الذي يجب النظر إليه أولا؟ واقعه أم غرائبية القصة القائمة بين الاثنين؟وما الذي له قيمة؟ الحيوان أم الإنسان؟

في لحظات متفرقة ومتعددة كان يتخيل الناس وقد وقفوا كلهم أمام بوابة السجن مطالبين بإطلاق سراح عمران ومن معه. في مرافعة عدالة اجتماعية وإنسانية فوق

العدالة المسماة سياسية. يرسم بسبابته شكل شفة عبوسة مقوسة إلى أعلى. يضحك من قلبه وبقلبه. يسمع همهمات وتساؤلات: ماذا هناك؟ نكتة جديدة للسجناء؟

لا يجيب جيرانه الآخرين. يضع كفيه على الحائط. ينتظر تعرقهما حتى يتبلل الإسمنت بصبابة طاقته وحرارته. وفجأة يُسمِع من يتساءل:

ـ أنا البدائي. أصبحتُ أنقش على الجدران مثلما ينقش هو على الصخور وداخل الكهوف. هاهاها...

ـ نمْ يا عمرانْ يا وليدي. اليوم خمر وغدا أمر.

ـ أين هو العمر بينهما يا حكيم؟

للغد، يأخذ قلم الرصاص وورقة جديدة ويخط مسلسل القصة. ما داموا قد طلبوا الغرائبي داخل غرائبيتهم سأجعلها احتفالية تراجيدية:

يقف حارسان أمام باب زنزانته. يأمرانه بالاستعداد لزيارة مكتب السيد المدير. يدخل مستقيما ورافعا رأسه، فقد تعلّم أن يحافظ كحد أدنى على جعل رأسه مرفوعا ومنتصبا. وصلته فيما مضى القصيدة والأغنية. طبعا هي حماسة نضالية غرستها قصائد محمود درويش وشحنتها ببارود الروح وحلم الثورة ألحان مارسيل خليفة وأغنياته. لم يُسمَح له بالجلوس مباشرة. حيا الطرفين في المكتب، السيد المدير وضيفه الجالس فوق كرسي والمتناول لكأس شاي ساخن. يسأله المدير:

ـ هل فعلا نشرت قصتك في إحدى الجرائد اليومية؟

ـ لا علم لي بنشرها. هي حكاية حكيتُها فقط.

ـ معي السيد مسؤول التحقيقات العامة، يريد أن يسألك بعض أسئلة، وأرجو أن تكون متعاونا معه في الإجابة عنها. تفضّل بالجلوس فوق ذلك الكرسي هناك.

كانت مسافة كافية بثلاثة أمتار تقريبا. وكان كرسيه من جلد ناعم ومريح وكرسيّي أنا من خشب بارد. جلست واضعا معصميّ فوق ركبتي وصدري منتصبٌ، رافعا الرأس إلى أعلى. فقد تعلّمت من النورس كذلك نظرته إلى البعيد من الآفاق.

ـ سيد عمران بن يوسف. سأبدأ معك الحديث عن الحمام الزاجل. هل تعرفه؟

ـ نعم.

ـ له غريزة حب لموطنه ووطنه. لا أدري هل هي موجودة عندك.

ـ لذلك أنا هنا معكم الآن.

ـ طيب. ما من مشكلة في هذا الجواب. تعلم أن هذا الحمام يستطيع العودة إلى موطنه مهما بعُدت المسافات. ولذلك استعمله الإنسان منذ القدم من أجل نقل الرسائل. الدراسة العلمية تشير إلى كونه يمتلك قدرة طبيعية تساعده بالشم أو بطاقة مغناطيسية من أجل رسم خارطة إياب لمكان انطلاقته الأولى. لا أدري إن كانت لدى النوارس هذه القدرة.

ـ عِلْمي عِلمُك سيدي.

ـ من خلال ما قرأتُه في القصة أن النورس دنا منك وأسقط أمامك سمكة سردين وعرج محلقا. بين الحقيقة والخيال كانت قصتك واقعا أمام شهود عيان من الحراس والسجناء. لذلك أسألك وأريد منك صراحة في حوارنا هذا. ماذا حَمَل لك النورس كرسالة؟ هل كانت السمكة محشوة بشيء ما؟

ـ سيدي المسؤول. النورس ليس هو الحمام. ربما كان شبعانا وأشفق على حال جلستي وتقوّس ظهري فيها، فأراد أن يطعمني بما ينعش هذا الجسد المنهك بالرطوبة والبرودة. بحسب إفادة طبيب مقيم معنا في الجناح باء، والذي نتشرف بالالتقاء معه في ساحة هذه الإقامة فإن السردين قليل الدهن ويحتوي على البروتينات والفسفور والكالسيوم والصوديوم وفيتامين ب 6... ربما رأى النورس أو شمّ رائحة السمك المعلب الذي نتناوله في بعض وجباتنا فأشفق علينا ورأى ضرورة تذكيرنا بفوائد السردين.

ـ طيب. أشير فقط إلى أنه إذا تكررت المسألة وضبط فيها أي نوع من اختراق قانون السجن فإنك ستتحمل كل المسؤوليات المترتبة عن ذلك. شكرا لك على سماعك لتوجيهاتنا. إلى اللقاء.

ماذا سأفعل في حصتي الصباحية داخل بهو الساحة؟ ماذا لو عاد النورس بشيء جديد ووهبه لي؟ هل سأؤدي ثمن أية مفاجأة؟ ولماذا لا يؤديها النورس بدلي؟...

آثر أن يجلس متواريا عن الساحة خلف شباك الممر المؤدي لها. اكتفى بالأشعة المخترقة لقضبان النافذة. وكأنه ألِف الوضع الحقيقي المعبّر عن الاحتجاز والاعتقال. سرح به النظر والتفكير بعيدا في مخططات البيانات والتصريحات الأخيرة التي أبداها المناضلون حول المرحلة الجديدة وضرورة التجند لنضال أكبر وجديد.

إننا لا ننتمي لأنفسنا. هكذا عبّر نورالدين الجليل في ختام بيان يوم السبت الماضي من شهر ماي 1991. مرّ على أحداث دجنبر 1990 مدة خمسة أشهر وزيادة. حركية جديدة يعرفها الوطن داخليا تتجلى في تشكُّل الكتلة الوطنية. التحالف الجديد بين أربعة أحزاب بالبلاد. مرت على الوضع الجديد لتحطم جدار برلين سنتان وزيادة. انهار المعسكر الشرقي وبدأت أنظمته تنهار وتستسلم لمنظومة الرأسمالية ولجشع الإمبريالية. أوضاع كثيرة وقضايا كبيرة عرفت انحرافا عن مساراتها النضالية الصحيحة. كل هذا ضمّنه نورالدين الجليل في البيان الذي صاغه.

تخيّل نفسه ذلك النورس المزركش الجناحين بالأبيض والأسود والرمادي. نسيم عليل وبارد قذفه التيار الهوائي داخل الممر جعله يتصور النورس وقد جرفته موجة عالية مبتلعة لحريته. شعُر بتثمل مسامه. كأنه هو الذي ابتلعته تيارات هائجة في البحر.

فجأة سمِع المناداة على اسمه من وسط الساحة وجوانبها: عمران، عمران ! سارع إلى الخروج من رحلته التشبيهية. أطل من الشباك. في البداية لاحظ رفيقه في الزنزانة وفي رحلة الاعتقال منذ بداياتها إلى الآن، حكيم العمراني، وقد بدأ يتراقص يمنة وشمالا بحركة كتفيه. ظنها موسيقى يتماوج مع موسيقاها. ذرع ببصره مجال الساحة،

رفع عينيه إلى أعلى الجدار ولاحظ النورس وقد وقف وبدأ ينط بكامل رشاقته على حرف السور. سمكته بين فكّي منقاره. عيناه مسرعتان في محاولة القبض على كائن أو مرسل إليه. جلس حكيم جلسة عمران متربعا ومتمايلا أمام النورس، وكأنه يتضرع بصلاة لإله مبجل، علّه يحظى بما حظي به عمران فيما وهبه النورس. لا نتيجة. خرج عمران من مخبئه واتجه في مقابلة للنورس فاتحا ذراعيه إلى أعلى. رفرف بجناحيه ورسم دائرته الاحتفالية في التحليق قبل أن يجعلها هبوط إجلال من هودج السماء المفتوحة، في شكل عمودي رسم الظل فوق وقفة عمران قبل أن يرخي السمكة من منقاره ويزقزق في إسراع إلى الخروج من حلبة الساحة التي امتلأت بالضجيج والصراخ والضحك والاستغراب.

و كأن ما فيه عمران لا يكفيه. سارع الحراس إلى الدخول وأخذ السمكة والذهاب بها ملفوفة في ورق مقوى قاصدين اتجاه مختبر الإدارة الذي لن يكون سوى عيني المدير ومعاينته للسمكة. وبقي عمران كالمتهم وسط الساحة، لا هو بالمتلقي لرسالته، ولا هو بالبريء من هذه الاتهامات وما سيأتي معها. دار النقاش في استغراب حول ما يقع، وكان عمران من بين المستغربين.

لكن النورس كان متخفيا في لون الصفحة البيضاء لورقة هادئة بحرف المحيط الهادي وعمق عالمه، داعيا عمران إلى تسجيل كل ما يقع كتابة جديدة.

حينما تساءل عمران عن وفاء، حسِب أن حضور نادية كان نيابة خجل غارق في الشوق الذي يبرر عدم القدرة على مواجهة واقع الغياب. لكنه تعلّم درس السخرية من القدر الذي رسم له نقوش حياته. حينما أخبرته نادية بأن وفاء لا تستطيع الحضور، كونها قد تزوجت بعد تخرّجها أستاذة لتعليم اللغة الإنجليزية وآدابها، وهي الآن أم لطفلين، لطم خياله بواقعيته وصفع جبينه بعرق متفصد مما تبقى له من نية قصد صافٍ يتفاءل بكرم الحياة معه.

لا شيء يفقده الأمل سوى هذا الخوف على عواطفه وأحاسيسه. يستطيع أن يواجه قضايا السياسة التي قادته لأبواب الموت فعاد أدراجه منها وقد رفضه القدر ضيفا عليها. استأنف له مسيرة الحياة ومزيدا من معاركها. كانت باقته التي يخشى عليها الذبول والأفول، إناثه اللاتي تعترشن تاج قلبه وفؤاده. غمرت عيناه صورة جلجامش مبللة بالدمع وسكنت صفحة البريق داخلها.

ابتلع ريقا جارحا اختزنه له كسمّ يتبلسم بترياقه من ذاته. كان يعيش لكل هذه المدة ذكورتَه وأنثويتَه. يحاورهما. يستحضر أصواتهما في جلسات خارج الزمن والمكان الواقعيين. كم من مرة جعل اللقاء بين أمه ووفاء، وجعل هذه تُصبّر تلك وتربت على كتفها أو تحتضنها في ذرف دموع حسرة متضامنة مع الغائب. كم من مرة جعل جلسته القرفصائية هدية لذلك الهذيان وسفرا نفسيا وعاطفيا له. كشجرة بقيت معزولة في صحراء بعد أن هجّروها مِن غابتها وأجمتها التي تحتضنها. كانت الرحلة ملحمة خلده الذي سقته الأنثى بحبها ونبتة العيش بها.

يحتاج الآن لحضن الأم كي ينام في كنفه إلى الأبد. يحتاج لدفئها وهدهدتها لكي يسكت أنينه الباكي كطفل صغير لن ينام إلا على سمفونيته. يحتاج أكثر إلى عقله لكي يخلق له معادلات جديدة تساعده على تحقيق توازن سريع ينقذه من كل هذا الميلان والجنوح الموشك على إسقاطه في حفرة في داخلها شباك وفي خيوطها أشواك تجعله عالقا يحتضر حتى تأتيه الموت فريسة لعنكبوت ما.

بين غباوة مرّة وذكاء منفلت، سارع للنظر في عينيّ نادية حين سماعه لخبر زواج وفاء في أول لقاء له معها. أراد أن يجعل هذه في تلك. أن تكون نادية هي وفاء. ما يزال يحتفظ بملامح الغائبة في ذاكرته. وهذه هرب بها الزمن معه إلى الأمام. وفاء الطالبة في بداية العشرينيات ليست هي نادية في أواسط الثلاثينيات من عمرها.

تقاطر الزوار من الأصدقاء والأهل والهيئات خلال هذه السنة الأولى من بداية الزيارات وإمكانيتها. أصبح الاعتراف به أخيرا كرقم داخل معتقل. له سجلّ يجعل له تاريخا وشخصية. بدأت ترسم له آفاق جديدة تجعله المناضل والبطل الأسطوري، تهب له كاريزمية غريبة لكنها تحمّله مسؤوليات أكبر لا يدري إن كان يستطيع أن يكون في مقامها.

يشعر بأنه منهك، بحار يرسم أفق شباكه نورس، محارب وقد أعيته معركته، لا عيب في ذلك. لكنه على ما يبدو، لا أحد يشعر بحاله. بقدر ما تضعِفه الأم والأخت بخوفها القديم والمتجدد عليه، بقدر ما تجرفه التواصلات الجديدة والتنسيقيات من داخل المعتقل وخارجه والرسائل التي يتلقاها بشكل غير مباشر من أشخاص معنويين، تجده يسأل ذاته: أين هي حريتي الذاتية والخاصة في الاختيار؟ لماذا لا يمكنهم افتراض عدم وجودي في لائحة انتظار الحياة، وتركي أعيش ما تبقى لي من العمر كإنسان عادي وطبيعي؟ أشتاق لبحر أرتمي فيه، فأكون سمكته المبحرة بالغناء

لسنين وسنين. لن أختار بطن الحوت. لن أكون النبي الذي رقد لسنين فيه. يضحك ويضحك. يُسمع له دوي قهقهات متتالية. يسألونه عبر الممر وبين خطوط الطول والعرض لشباك الزنازين: ما بك يا هذا؟ يا عمران، يا أب الأنبياء ! يا حكيمنا في رزانة العقل ورجاحته ! ماذا هناك؟

ـ لا تخف يا نورالدين، إنني بسلام. كنت أغني للبحر. طلبت منه أن يجعلني سمكة تسبح فيه لسنين.

ـ تخلّيت عن امرأة العزيز وتطلب أن تكون ضحية الحوت. ما لك بين الأنبياء تختار البحر؟ هل ستكون يونس الذي يبتلعه الحوت؟

ـ أنا سمكة ستسبح وتعوم وتغطس بدون جدران ولا قيود ولا حيطان ولا أبواب موصدة.

ـ أنت الشاعر في كل هذا.

يصفق جميع من شارك في هذا الحوار سمعا أو نطقا، ويسدل الستار على المشهد الذي يعيد عمران إلى داخل قفصه الهامس. يسائل نفسه: شاعر؟ سمعتُ عن (جبهة الأمل)، لكنني لم أقرأها بعد. اطلعتُ على رواية (كان وأخواتها). تغنّيت بك يا درويش في صوت مارسيل وموسيقاه. وأنت يا شيخنا الإمام، يا أسير النور والظلام، بحبحتَ حناجرنا ب(حاحا) والبقرة الحلوب...

ـ ما أنا بشاعر.

يصرخ بملء ما أوتي من أوتار.

ـ أنت الهالك بالغرام وشهيد امرأة العزيز يا عمران. أتركنا ننام يا هذا.

يصعقه التقرير النداء. ينهك خياله المتطاير في هذا المساء. ينزوي في قرفصاء فوق سريره الأبيض اللون الرمادي الحال. يعانق وسادته اليتيمة ويصمت.

ينتظر أي نداء داخلي من ذاكرته أو لا وعيه. وتأتيه هذه المرة الصور والمشاهد مرايا كشريط مسترسل لبث مرئي بدون صوت. هذه المرة تحتفل بمخيّلته امرأتان مبتسمتان: نادية ووفاء. يتأملهما في عتمة الليل.

يهتز جسده لذئبية جنسية انبعثت من دواخل غرائزه المبهمة. جرّب فيما مضى المقارنة بين الإنسان والحيوان. لفترة طويلة لم تفرق بينهما في كيانه أمور كثيرة. لولا هذا العقل الذي يشتغل دون مشاورة لكان حيوانا أفضل له من إنسان. قانون غاب وقد مزّقه. كرامة وقد غابت. محن كبيرة وقد كان من أنبيائها في الصبر والصمود.

يرافع إلى جانب الأنبياء حول وضعيته. ما يزال مستمرا في مواقفه ومبادئه وقناعة مطالبه. لم يكن يوما أنانيا بما يجعله يبحث عن تراجع أو إدانة للذات وللجماعة من الرفاق.

لكنه الآن وقد ترك الأنبياء يستريحون من تحامله على شرف رسالاتهم، يفضل أن يفكر في ذكوريته، في أُنْثَيَيْهِ اللتين تزاحم بهما اشتغال غرائزه وعواطفه ومسامعه.

يعود للمقارنة الجمالية بين الاثنتين. وفاء، ذلك الجسد الذي يفور حيوية ودما. تلك الحرارة المنبعثة من مسامها لحظات النشوة والغليان. تلك الارتعاشة التي تأخذها كأنها واضعة أناملها فقط فوق السرير فتحلق في السماء وفي سحب الرغبة واكتمالها. كأنها في تجربة يوغا فوق جبل من جسد، وهي فوق قمة تعانق العلا وتتركه في الدنى. العينان عسليتان والشعر الأحمر المنسدل بعد فك خمارها المنفلت من الرقاب ومن شدة العنق. ذاك التحدي الذي يستغرقهما ليومين وزيادة ملتصقين بالسرير. لا قداسة إلا للجنس، وكأنهما كانا على علم مسبق بالآتي في الفراق، بالأسر الشرعي والآخر القسري.

تمدد عضلاته ويسترخي شاعرا بدفء يسري في مفاصله حين عيشه هذه الذكريات من زمن الجامعة. يستطيل أيره فيطل عليه من تحت التبان اليتيم اللائق لستره. تنبض العروق وتسري فيها دماء، فيشعر باعتزاز وثقة متجددة، ما تزال رجولته قائمة وقادرة.

يعود للمشهد صرير الكرسي الذي تتخذه نادية للاستواء والجلوس حين زيارته. ما كان له أن يمتنع عن التقاط هيأة جسدها وردفيها وانحناءة صدرها وما يتمايل معها شعرا ونهدين وعطرا وترددا ينم عن شعور بالحرج أو الاثم فيما هي مقْدمة عليه من زيارة واتخاذ موقع ومكان بدل أخرى، كان من المفروض أن تكون هي الزائرة والمشتاقة.

ترفع رأسها بعد تنهيدة مختبئة مع ملهاة الجلوس، فتجده حابسا لفتحة فاهٍ مندهشة وغريبة. ظنّته استصغر ترددها، وظن هو، دون أن يشعر، بأن هذا الجسد له اشتهاء ولو عن بعد. تذكّر فلسفته الشيوعية والتي ما تحققت أكثر بقدر ما تحققت في مغامراته الجنسية المتحررة. توافقٌ جرّب مخاطره وخصوماته وكتّر به طابوهات وأخلاقيات رفاقه ورفيقاته، حتى ما كان من وفاء. كأنه الشيخ في احتضان مريديه. ومريداته كثيرات. لو استطاع نورالدين القابع في زنزانة بجواره، أو حكيم الصامت على ماضيه، أن يبوحا ويسترجعا معه هذه الذكريات، لقاموا بلعن هذا القدر الذي قادهم إلى هذا الجحيم. تلك الطالبة التي قضت ثلاثة أشهر متنقلة بين أحضان الثلاثة. هي المبتدئة والمحتشمة، وهم النمور الثلاثة قيدومي التحرر وكسر الطابوهات. خطابهم تحليل نفسي ويسارية شيوعية. ولا الرفيقتان اللتان قررتا قضاء عطلة الصيف في رحاب الجامعة وأحيائها السكنية المجاورة. حكّمتا على عمران بالبقاء معهما في شقة السكن المكتراة. تم إعفاؤه من مصاريف النفقة، فهن القويمات القائمات.

حتى ما كان من سجائره وبعض قنينات خمره المشتهاة. وحتى ما كان ثمن استحمامه أو تسديد ديون البقال أو صاحب المطعم. عشرون يوما في ضيافة الهوى والأشعار وقراءة مذكرات النضال، مرة مع تشي غيفارة وأخرى مع ماو تسي تونغ وثالثة مع لينين وغيرهم.

كل هذا كان زمن سلطنة وعز وهمّة نضال داخل قلعة الجامعة. الآن لا يملك سوى ذكرى لوفاء ورؤية محسوسة وملموسة بسلام لنادية. ونادية التي بدأت تطوّر نظراتها وابتساماتها وإطالة قبض يدٍ بسلام أو معانقة صدره إذا تمكنت من ذلك، بدأت بتدرج تدخل في خصوصيات عيش ومعاناة وحرمان عمران. تعده بالوفاء والاستمرار في مساندته وإحضار ما يرغب فيه بحسب المستطاع. ستنسق له مع الجمعيات الحقوقية التي برزت لتناضل من أجل حرية المعتقلين السياسيين، مع الأحزاب التقدمية ومناضليها. وقد جاءته بخبر سار بعد أن التقت مع شيخ النضال السي محمد بن السعيد. اقترحت عليه أن يبدي رغبة في الانتماء لحركة المنظمة الديمقراطية. واعتذرت لنفسها لكونها تعمل داخل جريدة تحمل توجها سياسيا مغايرا. لكنها ابتسمت له متفائلة بالمستقبل الذي تعد به الكتلة الديمقراطية التي تشكلتّ مع بداية التسعينيات. ابتسم هو مبديا برودة موقف متوجس من كل هذه الإشارات إلا ما كان من تفكيره في الانتماء الجديد الذي يمكن للمرحلة أن تفرضه نضاليا، إن بقي هناك نضال. فداخل انكسارات الذات، كانت لحظات الضعف والوهن والمرض تجعله في حنين إلى راحة مشيمية أمومية. لكنه يدرك بأن أمه رغم فقدانها لجل قدرتها على النظر والرؤية، تؤازره في عدالة قضيته وغصب حقه في كرامة حياة. على الأقل هناك أمومة مدعمة للاستمرار. فليكن ذلك.

الْتَهم الذئب ذئبيته في الأعماق، وعاد الإنسان للاستواء. لم يستطع يوما أن يجعل الجنس ورغبته خارج السياسة ولا العكس.

نادية، تفتتحها الصورة داخل الإطار البلاستيكي الأبيض. واحدة ضمن مقتنيات رمزية تركتها له هدية موقّعة في مرسولية إدارة السجن المركزي. لم تتجرأ على إعطائها له مباشرة. لم ترِدْ أن تجرح كرامتها أمامه. كان التوقيع من طرف (من تفكّر فيك بصمت).

يفتح قوس التاريخ، ينظر إليها واقفة في طابور التسجيل بالحي الجامعي. يمر بصوته الجهوري داخلا إلى مكتب إدارة الحي. لا يحتاج إلى استئذان فهو ضمن أعضاء التعاضدية والخلية اليقظة للدفاع عن حقوق الطلبة. هو كذلك ضمن فُرُق التجاذب والتقاطب للطلبة الجدد. تستأذنه حين خروجه من الإدارة في إمكانية تقديم المساعدة. يعتذر ويدعوها إلى الالتزام بالصف والقانون. من يومها قطبت حاجبيها كلما التقت أعينهما. زحفت على مقرراتها ونجاحها المتواصل. لكن جمرة الغيض شكّلتها أكثر صديقتها وفاء. بينهما برزخ لا تبغيان. وفاء ارتمت في تحرر المرحلة واقتربت أكثر من الرفاق.

أما نادية، فربما غيضها من هذا الطالب الذي لم يراعِ أنثويتها، لم يلتفت إلى رجائها. جعلها تكره دائرة رفاقيته والتزمت بدائرة الكتب والدراسة. وما تستطيع للحواس من منع، ولا للحوارات من صدٍّ. تصلها المغامرات والبطولات. وتصلها أكثر فلسفة عمران التي أذاب بها العقول المتحجرة، وفلق بها الصخور المتصلبة، وقارع بها آراء الفصائل المتناحرة.

مناضل يمتلك من أساليب البلاغة وتعابير الخطابة واستشهادات الشعر، يحفظ من النصوص القانونية وبيانات المذكرات السياسية والكتب اليسارية. أما بين الطالبات

فكانت سيرته أسرارا لا تبوح بها سوى من تريد التباهي ونقل الغيرة والغيض لأخريات... تسمع نادية وتكظم كل المشاعر المتناقضة. تحمد الله على أنها نفرت من الحديث معه منذ بدايات حياتها الجامعية. قد تتخيّل نفسها مرتمية في أحضانه، محتلّة لمكانة رفيقاته، لكنها سرعان ما تجد مبرر الابتعاد عن التخمين والتخيل. لا ترضى أن تكون رفيقة ضمن رفيقات متعددات لواحد. قلبها لرجل واحد. هكذا تريده. هو الآن قلب مطمور داخل الفؤاد، لا اسم له ولا تشبيه، يتنقل بين الشخصيات البطولية لمختلف الروايات التي تقرؤها وتلتهمها بالعشرات خلال كل سنة جامعية أو عطلة صيفية.

ها هي الآن تجرؤ وتطلب المستحيل ربما: قلبَه. لا تدري لمن هو بالتحديد. ما تعلمه هو الظروف الجديدة القاسية التي يعيشها في عزلته ومعتقله. ذهابُ من رهن لها قلبه قبل الاعتقال وزواجها من آخر. كان سيحكم على وفاء بالتسلق الطبقي وعملية التبرجز وإعادة إنتاج الرجعية الاجتماعية داخل البناء الأسري المجتمعي. لكن، لا شيء من هذا وقع، ولا تلفّظ بكلمة محتجة أو معلّقة. بارك بابتسامة باردة الخبر. تمنى لها السعادة والهناء. وحوّل موضوع الحوار في أول لقاء إلى التي تجلس أمامه هادئة في فستانها الأبيض المخطط بزرقة خفيفة.

هل كان عليها أن ترتدي لوحة البحر والبياض وصندالا ينعم بالقطن وتتعطر بماركة علقت رائحتها بين جدران القاعة المخصصة للزيارات، بل أكثر من ذلك، خياشيمه التي بقيت تتنفس عطشى لأكثر من ثلاثة أيام زافرة مع المنخرين في بحث متجدد عن سحر هذه الرائحة.

لِمَ لا. هدية السماء لقلب يحب الحياة. ويا مَا أحبّ اللذة والمرأة وجعلها إلهتَه المقدسة. يا مَا رافَع على قدسيتها داخل تدنيس المجتمع لها. الآن هي نادية. امرأة في منتصف

الثلاثينيات، اختار قلبهُا الارتماء اعتقالا داخل قلب هذا المعتقل المتعطش للحرية. لا يحب التعبير بأسر قلبها. حريته تطالب بحرية الآخرين ولو كان ذلك في آخر لحظات الارتماء للعشق والشهوة والالتزام، فكيف سيطلب منها أسر قلبها في حبه وغرامه والتزامه.

سيقتضي الأمر شهورا أو سنوات قبل استجلاء هذه العلاقة الجديدة التي وهبتها السماء. لكن الأولويات نضال من أجل قضية. فكيف سيتجاوران؟ تكيف جديد طبعا. وهو صاحب التكيفات التي أخرجت الرفاق في معتقل الجبل ومآزق اليأس ومحاولات الانتحار وحافات الجنون. لن يكون انتظارا إذن. هو بحث عن حرية داخل قفص السجن.

مرت بضع سنوات على الوضع الجديد. بقيت أخرى مما سمعه في مرافعة شكلية. يستغرب مسؤولو السجن المركزي لهذه الطاقة المتجددة عند هؤلاء المعتقلين في عقولهم والتي لم تعد تمتلكها أجسادهم. مراهنة بقيت خاطئة طبعا ما دامت قد ركّزت على الإضعاف الجسدي والإجهاد الفيزيقي وتنويع أشكال الآلام التي تسمى تعذيبا. كالحمقى وما هم بحمقى. كل مرة يخرجون إلى الساحة المخصصة لجناحهم والتي تأتيهم بهدير البحر. ما وراء السور. هناك بحر. هكذا استنتجوا، رغم أن أحدهم أيقظهم من سباتهم ومن ظنهم الخيّر: ما وراء البحر، هناك مقبرة. كان قد غمغم ساخرا، وكانوا قد سادهم صمت وطمروا كلامهم كأصحاب الكهف الغائبين.

إلا الموت. فعليهم أن يختاروا لها احتفاليتهم الخاصة. الآن، بعد مرور مرحلة هي رحلة موت حقيقية، يريدون الإعلان عن يوم وفاتهم. قد يختارونه، وقد يصفقون لأحد الاختيارات والخيارات التي طرحها صديقهم نورالدين:

في أعلى جبل، وسط الغابة، على حافة سفح وطريق منبسط ومفترق طرق بين مسالك، مقلع للرمال ليس بريع ولا باغتصاب لمالكين ومزراعين أو فلاحين، هناك، ستكون مقبرتنا عمودية بطبقات. المنحدر حافة كالحائط. سنجعل لكل واحد منكم ومنا صندوقا ودرجا يفتح أفقيا، لكل كائن فيه حق تحنيط ومذكرات يسجلها قبل مماته وتوديعه لعالم الأحياء. ستكون مقبرة موتى ومكتبة أحياء ومذكرات خلود. ما رأيكم؟

يرد عليه حكيم بمكر مخادع:

ـ سنجعل لك يا نورالدين شريط ثوب أحمر في رجلك اليمنى.

ـ لماذا؟ يسأله نورالدين مقطبا.

ـ طولك أكثر منا. ربما ستبقى رجلاك خارج التابوت، لذلك سنجعل علامة منبهة مثل علامات الشاحنات الطويلة.

يوم هذا الحوار، كان أحدهم قد خرج من حصار وتعذيب بسبب رفضه لإجراءات سجنية جديدة، وتصريحهم بتهديدات نضالية. حينما سمع الحراس ضحكهم وقهقهاتم، ظنوهم مجانين فعلا. لا تؤثر فيهم ظروف ترهيب ولا تخويف.

ـ السلامة يا مولانا.

هكذا انفلتت من أقرب الحراس هذه العبارة الدالة على الاستغراب وعلى التعجب والخوف من أن يكون هؤلاء المساجين قد مسّهم جن أو أصابهم بله.

انفجرت بعد إطباق للشفاه ومزّ يسبق كل انفجار ضحكات تطاير معها رذاذ بصاق غير متعمد. قد يعتذرون عليه للحارس إذا سنحت الظروف بذلك.

في السنة السادسة، نال عمران ديبلوم الدراسات العليا بامتياز. راوده البحر في الاشتغال، فكان صرف نظره عن الدراسات النفسية والاجتماعية والفلسفية، واشتغاله على نفسية البحر. موضوع جديد لم يتطرق إليه باحث من قبل، بالخصوص في بلد المغرب. أوصته اللجنة، ووعدته بمستقبل كبير في مشوار هذه الدراسة وهذا الموضوع.

جادله الرفاق في البداية. اعتبر حكيم العمراني اختيار الموضوع سقوطا في ميتافيزيقا تبعدهم عن الواقعية الموضوعية في التحليل. كان تذرع عمران بالأدب والصورة الأدبية. فلسفة جديدة مكنه الأستاذ المشرف ولوج عوالمها المتخيلة والافتراضية. كان صديقه الجديد في رحلة الاكتشاف الأدبي والفلسفي (جيل دولوز)، وسيستمر ذلك لسنوات مقبلة.

أما الحرج، فكان عند إدارة السجون وداخل دواليب وزارة الداخلية والأجهزة الأمنية. (مفكر جديد يعد بفلسفة متطورة وقراءة محاورة للطبيعة والبحر، يقبع وراء القضبان. عاش في رحم الموت منسيا بين الجبال والمعتقلات السرية، وتنفلت دراساته الأدبية كنور يفلق جدران الإسمنت، كشجرة التين المفجرة لشقوق صلبة. يقولون أنه روّض بحكمته وعبادته التأملية نورسا، فأصبح يأتيه بما لذ وطاب من نعيم البحر. سليمان الحكيم في السجن المركزي بالقنيطرة، والأديب الذي لا محالة سيجعل النقاد يتقاطرون على أسوار كعبته لطلب بركته. لكنها بركة المعتقل...).

جزء من مقال، صدر في مجلة أدبية فرنسية. ذاع صيته وصيت صاحبه، ونشر صورته بين وسائل الإعلام وقضيته داخل هيئاتها. انضاف لأسماء سرّعت بمعالجة قضية الاعتقال السياسي بالمغرب. وكانت نادية الرجوي في الواجهة. صحافية ساندت المعتقل عمران بن يوسف خلال سنوات الجمر والرصاص، استطاعت أن تخرج ملفه وأن توفّر له ظروف الدراسة والبحث العلمي... إنها بطلة مسلسل (الصورة الأدبية وترجمة نفسية البحر).

قفص الحياة الخارجية:

ثلاث عشرة سنة. أربع عشرة إلا واحدة. وقع الاستثناء ولن تكتمل السبع التي تحدث البركة في الذكر. خلال الأسابيع التي سبقت مفاوضات الإفراج والسراح النهائي ورؤية نور الحرية وانطلاقة الحركة، بدأ ليل عمران بن يوسف يطول. أخذ يراجع وضعه الجديد. لم يكن الإفراج مجانيا طبعا. سبقته مفاوضات وتوافقات قبلية. مجموعة من المواقف السياسية كان لابد لمجموعة التسع أن توافق عليها وتخرجها كبيان سياسي يناسب بالمقابل ما ستتخذه الإدارة العليا بقرارات عليا.

من سيحاسب الزمن الذي هُدر هنا وهناك قبل هذا الهنا؟ شريط آلام وفقدان أمل. بين لماذا وماذا، كانت الحيرة فيما ستقبل عليه المجموعة. لا نقاش في ثلاثية السيادة: الروحية والسياسية والترابية. تلك اللاءات الثلاثة التي ستصبح في قاموس المجموعة مقبولة ومتوافق عليها. كان دخولها في تنظيم حزبي جديد يشكل توجه اليسار المتوافق مع العملية الديمقراطية، والتي يسير المغرب على منوالها، قد يسّر للإدارة عملية التأشير لإطلاق سراحها. وكان خروج الأفراد كأبطال أتوا من معركة منسية سيؤثثون الفضاء والعمل الجديدين.

أعطوا الانطباع العام بأن الوضع السياسي الجديد هو الأمل وهو الأفضل. داخل نسبية حاسبهم عليها رفاق أمس، ويوم تقاطعوا معهم مواقف كبرى رسمت تاريخ اليسار المغربي، ها هم الآن في الواجهة الإعلامية والسياسية والثقافية.

يُسائل عمران بن يوسف صديقه حكيم العمراني:

ـ هل كان علينا أن نجعل تخصصا دراسيا داخل السجن يؤهّلنا للإجابة على الأسئلة المتعطشة للناس وللهيئات حول وضع البلاد والحلول السياسية والاقتصادية والثقافية التي تليق به؟ ينتظرون منا أن نكون عباقرة، ونحن مجرد ضحايا مرحلة وسياستها. نحن بسطاء وأفكارنا بسيطة. يحمّلوننا مسؤولية لسنا قادرين على عبئها الآن. لسنا بأنبياء ولا هذا بزمانهم.

استقبلتهم هيئات حقوقية وحزبية مهمة حين خروجهم من باب السجن المركزي. عناق حار وكلمات وشهادات. صور تذكارية وحوارات صحفية وتغطيات إعلامية. حافلة سياحية ستأخذ المجموعة ومعها وفد ممثل للمجتمع المدني والسياسي المحلي والدولي وتنقلهم إلى فندق فسيح ومصنف بالعاصمة الرباط. إجراءات إدارية وأمنية كان على المجموعة أن تمتلك معها صبرا قبل معانقة أحبابهم وأهلهم وذويهم، أو قبل الترحم على بعضهم أو على بعض من المعتقلين الذين لقوا حتفهم هنا أو هناك بين الصحراء والجبل.

بطاقات هوية جديدة ولقاء مع الأسر في بهو الفندق وسيارات خاصة نقلتهم إلى ديارهم الأصلية التي يرغبون في التواجد بها بحثا عن تغذية فطرية مفقودة.

أما عمران، فقد كان اتفاقه مع نادية لكي توفر له شقتها بالرباط لكي يستريح بها لمدة ويستقبل فيها عائلته، أمه وأخته طبعا. كانت نادية الضيفة والمضيفة. هيّأت له ما يناسب. استقبل أهله وأصدقاءه القدامى والجدد بمكان سكناه الجديد في شقة بحي أكدال. استقبل شخصيات حزبية وسياسية وثقافية وأدبية. شعُر بضغط جديد فرضته أجندة المواعيد اليومية الجديدة ومنصات التواصل الجديدة كذلك.

كان شهر مارس من سنة 1992. كانت الاستحقاقات الجديدة مقبلة في شهر أكتوبر من سنة 1993 بعد أن سبقها الاستفتاء على الدستور الجديد في 14 من شهر شتنبر من سنة 1992. وعود بمرحلة جديدة بعد أن هيمنت الأحزاب الإدارية على أغلبية المقاعد والجماعات. في حين لم تعطِ نتائج انتخابات الغرفتين بونا في الأرقام ولا منطقا واضحا في تباييناتها.

كان لزاما عليه أن يتبنى موقفا واضحا يطّلع عليه باقي المناضلين الذين يرون في تجربة نضالهم واعتقالهم الشمس الجديدة التي ستزيح العتمة على الحياة السياسية وستنشر الحرية كما تأملها الشعوب المتعطشة للتحرر، لكن عمران في قرارة نفسه كان غير مقتنع بمؤشرات المرحلة ولا مشجَّعا على تركيتها. توارى إلى الوراء ما استطاع، وترك لكوادر الحزب الإعلامية أن تصرّح وتقرأ البيانات. كانت الاختلافات الداخلية مؤثرة على ما سبق وما سيأتي من مواقف والتزامات، وإلا بماذا سيفسر عدم التصويت على الدستور الجديد واعتباره غير كافٍ، والدعوة للمشاركة في الانتخابات التي ستأتي فيما بعد؟

عاش عمران ورفاقه مناخ ونتائج هذه الظروف الجديدة.. مرحلة زاوجت بين ألوانه الشفافة والبيضاء التي اختارها في اللباس، وتوترات الضغط الجديد ومسار الخيارات العامة في البلاد.

استغراب جعله يوسّع من دائرة الثقافة والأدب في حياته ويقلّص من دائرة السياسة والحزبية فيها.

و بينما آثر حكيم العمراني جعل قطيعة مع كل عمل سياسي وأخذ تقاعد عملي عنه مع التفرغ إلى التجارة والبيع والشراء، لغة الإنسان القديم في المقايضة، اختار

عبداللطيف_باهوش حياة المنفى والعيش بالمهجر. فيما بقي الآخرون ومن ضمنهم عمران بن يوسف داخل التزاماتهم السياسية والحزبية اليسارية مع تباين في مواقع المسؤولية والعمل فيها.

حي أكدال بالعاصمة الرباط ليس بالحي العادي. فقد شكّل وسط النخبة الإدارية والطبقات الاجتماعية المتوسطة والراقية، ووسط حياة التحرر في العيش المدني اليومي. حتى كبار القوم يقصدونه في تسوّقهم وترفيههم. كما تعيش فيه الجاليات والبعثات الديبلوماسية من مختلف الدول والقارات. لذلك، وحينما آثر عمران الاستقرار فيه، رآى بعضهم ذلك بداية انتحار طبقي. ضحك ساخرا من مثل هذه التعاليق ودعاهم إلى خوض تجربته في كهوف الأطلس المنسية أو في رطوبة سبو الصدئة. اتضح له حضور مثاليات وأوهام أفكار تحررية عند بعضهم. استشعر مثالية مرحلته الطلابية معها فقام بكتابة نقد ذاتي لتجربته ومواقفه السياسية علّه يجد مخرجا للمرحلة. كان المثقف حاضرا بجبّته ونورسه داخل كيان السياسي.

سنة واحدة جعلت من الثنائي نادية وعمران في الواجهة. تشاركا اللقاءات والسهرات والتكريمات والتوقيعات. ارتقى الظهور إلى الإعلان عن ارتباط رسمي بين الزوجين. إلى ذلك الحين كانت وفاء في بحر حياتها الاجتماعية والمهنية والأسرية. لكنها ذات صباح، قررت المجيء من مدينة تطوان حيث مقر عملها وسكناها إلى العاصمة الرباط في طلب لقاء على انفراد مع عمران بن يوسف.

عيناه جاحظتان بابتسامة طفل وَعَدُوه بأمومة لم تكتمل. ماتت أمّه بعد ثلاثة أشهر تقريبا على خروجه من المعتقل، وكأنها كانت تنتظر أن تظهر المعجزة وتطلب الانتقال إلى السماء. لم تتصور أن تحتضن ابنها بعد غياب أرسل خبر وفاته مرات متعددة قبل أن يشرق الأمل وتبدأ رحلة البحث عن تحريره من قضبان السجن والاعتقال.

كان القلب فيما مضى هو الذي فقد القدرة على الرؤيا، وانتقل ضعفها إلى العينين بفعل الدموع الحارة المنهمرة على الفقدان والابتعاد والحرمان وعلى ظروف العيش والاعتقال. لكن الأم المناضلة التي تمّ تكريمها في سنة 1989 لتزغرد بحق ابنها في الحرية أمام وسائل الإعلام فقدت البصر وكأنه استراحة من معركة صدمة الواقع ومعاينته. حين زيارات عمران لها بالمدينة الجبلية يجدها جالسة فوق درج بجانب عتبة المنزل الذي احتضن طفولته وصباه وشبابه. تسابقه إلى الطمأنة:

ـ يا عمران، لقد أصبح قلبي أكثر ارتياحا الآن. أتمنى من كل قلبي أن تعيش في هناء. لم أعد في حاجة إلى هاتين العينين لأرى بهما الآن. إنني أراك في قلبي وأتغذى بهذه الرؤية. والحمد لله على كل حال.

في التقائه بوفاء، داخل قاعة مطعم راقٍ بحي أكدال، كانت محاكمة جديدة لمرحلة وعلاقة أرادت وفاء أن تبرّر وتجد موضعة وتكييفا جديدا لها. ستدخل الحسابات النفسية في التحليل، وسيحتاج عمران إلى كل صبر للعودة بالزمن إلى الوراء لكي يحاسب مشاعره ويصرّح بما دار في دواخله ويجعل تبريرا لما اختارته وفاء فيما بعد.

ـ على العموم، هي مرحلة جديدة نعيشها نحن الاثنين. أنا اخترت بناء أسرة، وأنت اخترت الارتباط بصديقتي في الجامعة. أتمنى أن نبقى صديقين ونبنيَ مرحلة جديدة من التواصل واللقاء. في الحقيقة، لستُ مستعدة للقاء نادية الآن. ربما نبني لذلك ظروفا مناسبة. الحمد لله على أنك بخير. لقد كان الغذاء شهيا بصحتك وحضورك. شكرا لك وإلى اللقاء. لابد لي أن أعود هذا المساء إلى مدينة تطوان. مبرر الغياب أوراق إدارية بالعاصمة الرباط. ربما أعود للبحث عنها مرة أخرى.

لقد استقرت وفاء بعد تخرجها من كلية علوم التربية بمدينة الرباط، بعاصمة الشمال تطوان. كانت قريبة من مسقط رأسها. جاءها خبر إطلاق سراح عمران كفاتحة سماء منفرجة بعد غيوم جليدية بدون أمطار دافئة. الحياة عندها أناقة وشياكة وذوق رفيع. اختارت رجل أعمال ناجح للزواج منه، واستقرت أسرتها بنفس مدينة عملها. السيدة وفاء. هكذا أصبح لقبها وتسميتها داخل الأوساط الاجتماعية والمهنية بتطوان. عكست شخصيتها داخل القسم وقدرتها على التحكم في مناخه وجذب التلامذة للمادة ونقل انطباعاتهم المعترفة والمنوهة بالأستاذة، مرآة صورتها واحترام الناس لها السريع. أنجبت طفلين اختارت لهما تسميتي (عمران) و(صبح). كانت التسمية الأولى من اختيارها والتي عرفت عقيقتها سنة 1986، بينما كانت التسمية الثانية من اختيار أخت زوجها، استحسنها الجميع بمن فيهم وفاء.

استغرق الأفق سنوات في انتظاره. عساه يظهر، يسمع نجواها، شجنها، حسراتها. تشرح له سبب وظروف اختيارها وقرارها في الزواج. ارتأت أن تُخَلِّدَ حبه في فؤادها وتجعله في فلذة كبدها، ابنها الذي سيترعرع برعما ثم زهرا ثم شبلا فأسدا تستأسد به في محيطها وجنان قلبها. انتظرت بعد انتهائها من الدراسة الجامعية وتخرجها من كلية علوم التربية سنتين. تواصلت مع الرفاق وناضلت خلال مرحلة اعتقاله من أجل الكشف عن مصير المجموعة. أصبحت صور المختطفين والمعتقلين "بوسطيرات" تزخرف كل عمود وكل مدخل بالمدينة الجامعية. في باب المقصف حيث التلاقي الطلابي اليومي فرض فصيل عمران ومجموعته ثلاثية الزعماء كارل ماركس وفريديك إنجلز وتشي غيفارا. كما فرضوا تحت صور الثلاثة شريطا يضم المجموعة المختطفة.

لم تكن وفاء هي التي أخبرت عمران بهذه التفاصيل. فقد اطلع على بعضها خلال فترة الاعتقال المعترف بها في السجلات. وقد كان الاعتراف بمثل هذا التزوير المرتبط بنفي وسنوات اعتقال الجبل كتوقيع ذاتي على الإعدام. سلخ ذاته ذات مسائياتِ أكدال في ثمالة مرجوة ونقد ذاتي تبوح به الكأس كما تشاء:

ـ سبع سنوات من العمر كفرشة ورد معطرة تم تجفيفها في دواخلي. لا يحس بالظمأ لها ولا باليبس المتشقق والحارق لها سوى صاحبها. كم من افتراض لحياة وقدر أجمل. كم من حُب ومن قبلة ومن شمس ومن رحلة حياة واكتشاف ضيّعتُها خلالها؟ كنتُ أنا الذي قبِل بأنصاف الحلول. ها أنا أؤدي الثمن غاليا من ذاتي وكياني. ها أنا أثمل لكي أعرّي هذا الجسد.

تتابع نادية بقلق هذه التوترات الجديدة التي بدأت تتفجر في يومي الحياة عند عمران. تتوجس كأنثى من كل خلل أو نقص أو اختراق يمكنه أن يصدّع مملكتها. تعلم اندفاع الأخريات للتعلق برابطة صداقة أو علاقة بعمران. (عمران هذا الذي زاده الاعتقال وسامة تجلت أكثر في ثبات قسماته وارتسام ابتسامته الموقعة لقوة شخصيته وتوازنه الداخلي والموقفي). هكذا رسم معالم بورتريه عمران من طرف صحافي بارز في العمود الأخير من جريدة الحزب كمقدمة استهلالية لحوار أجراه معه في حلقات.

ستبدأ غيرة جديدة تمتلك شعور ونفسية نادية. ظنت أن تضحيتها معه في أحلك أوقات عمره ستكون كافية لكي تجعله لها وحدها. لكن، يبدو أن المحيط له ما يقوله في حياة كل زوجين وكل علاقة. لا تستطيع حبسه عن التواصل مع الناس وهي تعلم مدى رفضه لكل تعسف على حريته، مثلما هو يقدّر حريتها ولا يسألها عن يوميّها وتغيباتها وسفرياتها إلا بما يتطلبه الاطمئنان والسؤال الذي يجعلها دائما في الباب والاشتياق.

تلك الجلسات الرفاقية والإعلامية التي تجمعه بشكل شبه يومي بحانة يرتادها أمام القاعة الرياضية المغطاة بحي أكدال، وتلك الارتباطات بمواعيد ثقافية وحزبية وإعلامية، ذلك الغياب الذي قد يستمر لأيام بين الرباط والدار البيضاء وغيرها من المدن المغربية التي يحل بها ضيفا، كلها غيابات بدأت تخلق ذلك القلق الذي يصاحبها، انفعال متدرج ومحتج على الغياب وعدم الإخبار وإهمال العلاقة الزوجية ومواعيد اللقاء مع زوجته..

وكلما ازداد شعوره بالتعسف على حريته ازداد توتره الداخلي الذي لا يبديه لمن ساندته وآزرته وأخرجته من يأس نفسي... لم يبالِ ولم يعط اهتماما لما قالته وأخبرته به وفاء. قد يعتبر ذلك صراع نسوة أو غيرة أو تبريرا لعدم الكون في الموعد. وحيث يكون الموعد قدرا لا يحالف صاحبه، فإن وفاء لم يحالفها الحظ لتعرف أنه على قيد الحياة وأنه معتقل. لم يحالفها الحظ حينما ألحت على صديقة دراستها الجامعية والإعلامية التي لها تواصل وعلاقات في العاصمتين الرباط والدار البيضاء لكي تبحث عن ملف عمران وتتابعه وتقوم بزيارته دون ذكر طلبها هي وفاء لذلك، دون وقوع في إحراج للحظة إخبار بزواجها وإنجابها وتسميتها لابنها تيمنا باسم المناضل الذي أحبته وعاشت معه أسعد فترات الحياة ألا وهي الحياة الجامعية.

ـ وكأنني قدمتُ لها طبقا من ذهب. والله العظيم لغريب كل هذا. أطلبها لرعاية فتنقضّ عليه كفريسة. منذ الجامعة وأنت تغارين مني يا نادية.

هكذا كانت وفاء تخاطب وتكلم نفسها وهي في رحلة العودة من الرباط إلى تطوان، خلال رحلتها من لقائهما الثاني الذي كان بمطعم باليما بالرباط.

تتأمل الطريق الذي بدأ يتخذ منعرجات جبلية في اتجاه مدينة وزان ثم شفشاون فتطوان. تمر بالقرب من مسقط رأسها قبل الوصول إلى منتهى رحلة السفر. تشعر بانسلاخها عن لحظتها الحاضرة وعيشها لمرحلة زمنية ما. يوم كانت طالبة متحررة وحرة لا قيود تكبّلها ولا حياة زوجية تفرض عليها طقوسها الاجتماعية. وتنفجر بدواخلها وفاء الشابة والطالبة.

تعرق جسدي أحست به. لم تُرْجِعه إلى درجة الحرارة المرتفعة ولا إلى حركة الحافلة المزعجة. غضب لا تشعر به إلا المرأة حين اشتداده بداخلها. تعلم أن نادية أخذت منها ذاكرتها ورحيق حبها الكبير. (لو كان قارورة عطر فارغة لأعطيتها لها. لكنه عطر به أتشمم رؤيتي لابني وندائي عليه ومواجهتي لهذا المجتمع. بشخصية عمران اكتسبت القوة واستطعت كسر قوة الرجال سواء كانت في أبي أو في زوجي رجل الأعمال. حاولوا ما استطاعوا جعلي امرأة في أدوارها التقليدية. وحاولت ما استطعت لأكون المرأة التي أريد. المرأة الحرة التي تتخذ قراراتها وتختار ما يأتي في يوميّها وما تريده من ألوان وأسفار ومواعيد وعلاقات. حينما يصبح المجتمع مُقدِّرا لدورك ومنتظرا لرأيك: فاعلمي أنك حققت نجاحك في تقدير شخصيتك وعيش حريتك).

صباح !

أثاره الاسم حين النداء في البداية. أقلقه طيف الجسد المتبختر احتجاجا فوق الخشبة. عينان زرقاوان وشعر أشقر منسدل. طولها فاره بالنسبة لذكر قد يعشق تسلق جبله ولو نظرة أو تخيلا.

فوق الخشبة، حافية القدمين. تركت الصندال الجلدي المنبسط على حافة الدرج الأخير. هو طقسها في ولوج المسرح والركح. لباس طويل وفضفاض مهمل الحواشي في انسداله هو الآخر خيوطا ثوبية رقيقة. يتمايل مع صوتها قبل جوارحها. يشعر بظلالها المنفلتة وهو التائه تحت أشعة صحراء لاهبة. نخلة سامقة بكل جريدها وتمايلاتها وما فيها.

صاحت باسمها فوق الخشبة:

ـ صباااااح !

انتظرت رجع الصدى. حتى ما كان من السينوغراف والمخرج المسرحي اللذين بدآ حوارا جانبيا في انتظار وصول المدير التقني لقاعة المسرح. جذبهما طقسها الأنثوي السحري الأخاذ بصوتها المتغنج الذي يختزن طربا حافلا في الإنشاد. صوت يحوّل زوايا العتمة في القاعة إلى رجع صدى وكائنات في محكيات التاريخ الذي أنجبته الأنثى.

عمران، واضع شدقيه على كفيه، مستند بمرفقيه على كرسي منحدر نسبيا أمامه. في حلته البيضاء وزخرفة شعره الفضية المنبعثة اشتعالا من سواد، وبعينين بارقتين

ولامعتين، يتأمل صباح وصيحتها. نسي كل العوالم الخارجية والداخلية إلا ما كان من هذا الفضاء وهذا المشروع المرتبط بتجربته الإبداعية والنضالية: سيرة نورس. إلا ما كان من هذا الصدى الراجع لصوت خلودي يمتلك الكون بأوامره ونبرته.

شعُر بسحرية الجسد وصوته. امتلاك لعالم خاص. صاحبتُه تعيشه سعادة وفرحة وتحديا. لأول مرة يرى قدرة الحلم والخيال على اختراق عوالم ونقل أفكار الملائكة التي تتمثل بين الفنون والألوان. ستؤدي صباح مسرحية فردية في غالبية مشاهدها، مستوحاة من النصوص الأدبية للأديب عمران بن يوسف. كان حضوره ذا قيمة رمزية وعملية في آن، لكونه سيبدي ملاحظاته ويضيف لمساته التي يراها مناسبة للإقحام كحركة وككلمة وكغناء وإخراج... ما دامت تجربته التي سينقلها الفريق إلى الجمهور ذي النوعية الخاصة في الالتزام والاهتمام. ستكون لغات متعددة حاضرة في الترجمة والأداء. أرادها الفريق لوحة كونية ورسالة عالمية، وعلى عمران أن يرافق صباح في حواريات التدريب ومضامين التمثيل ولحظاته التي سيعترش فيها فضاء الخشبة. ولِمَ لا، في كل مرة سيكون دوره متجسدا بمشاهد جديدة، يكون هو المُعبّر والراقص والمراقِص فيها.

عطر جديد سيخترق حواسه، سينافس أنثاه ويزيدها غيرة وحِدة توتر. هذا الخروج اليومي والتشاركي مع صباح. وكأن نادية لا اعتبار لها. هذا التأخر في المساء وعن وجبة العشاء مع الفرقة المسرحية. هذه المتابعة للمخرج في ثنائية الحوار والتفاعل بين شخصيتين: صباح وعمران، وكيف سيستغله لوضع اللوحات والمشاهد المناسبة وترتيبها كرونولوجيا.

النورس في تحليق جديد وغريب. رفع رأسه إلى سماء حي أكدال، علّه يلاحظ مرور نورس فوقها. انعكس بلل دمعة محبوسة مع أشعة منفلتة من زجاج النوافذ

العالية. اشتاق للبحر، وما هو ببعيد. خَطَا ببطء لا يريد به إيقاظ كائنات المدينة نحو حي المحيط. نصف ساعة مشيا على قدميه. عبَرَ شارع النصر واخترق الأحياء. وراء الكتلة الإسمنتية زرقة بحر حرة، لا سياج ولا أقفاص تنسجها.

سيجلس بجوار القلعة القديمة عساه يستقطب حوارا نورسيا جديدا. كان البرج الكبير أو برج روتنبورغ نسبة إلى من بناه في القرن التاسع عشر الميلادي، مجاورَه في محاورة هدير المحيط الأطلسي. سيفكر في نادية وتقلباتها وقلقها الجديد. لم يحاسبها على كتمانها لوصية وفاء. راعى أنثويتها ورغبتها في التعلق. قدّر تضحيتها من أجله وانتظارها لسنوات قبل أن تستطيع العيش معه. حتى ما كان من عقد زواجهما، حضراه بمكتب العدول وبحضور حكيم ونورالدين كشاهدين وبشروط متساوية بينهما. دوّن العدل الموثق ما رآه مناسبا وملائما لشروط الكتابة الشرعية. تغاضى عن إلحاحهم وعرضهم لصيَغ غير ملائمة شرعا ورسميا. تجاوزوا طلباتهم بالتركيز على الحدث والاحتفال. جعله الأربعة: عمران ونادية وحكيم ونورالدين، بمطعم جميل بحي أكدال. كانت المفاجأة مخبأة إلى حين حضور ضيوف آخرين من أصدقاء عمران وأهله وأهل نادية ومعارفها... نشرت الجرائد صورتهما ومباركة زواجهما. خبر بألف حدث، زواج الإعلامية نادية بالمناضل عمران.

كل هذه ذكريات جميلة. مرت عليها سنتان ونصف تقريبا. تسارعت معها الأحداث. لم تكن وتيرة عمران هي وتيرة المجتمع. كان يسابق الزمن وكأن شيئا ما ضاع منه معه. لم يحتمل يوما فكرة الانتظار دون مبرر. يكره فكرة الدقيقة التي تتحول إلى ساعة. يكره القيلولة. ينام لساعات محدودة ويعيش ما تبقى من اليوم في حركية وحيوية ونشاط. يخصص لحصته الرياضية ساعة في اليوم. قد تكون صباحا أو ظهرا أو مساء. لا يهمه أمرها. المهم تحققها كطقس. ولأنه يعلم ما أسكنته الزنازين في أضلعه

ومفاصله ورئتيه، يرافع الفناء والعدم اللذين وعدته بهما بالتحدي في الوجود والبقاء والرياضة.

طقوس عمران بن يوسف أصبحت مشهورة عند جل من يعرفه، بل حتى في حواراته الإعلامية. شخصية فريدة يرى فيها جل أفراد المجتمع بأنها مسكونة بشيء لا يمكن تسميته بجن ولا بهوس. يمكن تسميته بقوةٍ ألوهيةٍ. لو كان باستطاعة الناس استعارة حضور آلهة متعددة لقالوا تسكنه آلهة قديمة. قد ينزلون به من مقام الآلهة إلى مقام المس بالجن. وفي ذلك استصغار واحتقار نتعاضد على تنزيله. قد يكتفون بالاستغراب أو بالقول: الله يستر. لا يدرون لماذا قد يفرغون هذه العبارة، رغم عدم مناسبتها. لكنهم ما استطاعوه ردعا لعجز ثقافي ومجتمعي يكبلهم. قد يعونه أو لا يعونه. هذا حالنا.

رأى عمران بن يوسف أن تبدأ المسرحية بهذه الملاحظات حول الحال الثقافي لشخصية الإنسان المغربي. ما يمثل أغلال السياسة في النفسية. رأى استخدام موسيقى شعبية وأغنية شعبية في البداية. إنه يعلم وقعها على المستمع. لو جعلوا الإشهار بهذه اللازمة: سيدي موسى بن عمران، الله يا مولانا... بدفة بندير وجرة كمان، لاستقطبوا كل جماهير سهرات السبت الأسبوعية المتابعة للتلفزة المغربية. ما قد يخلق له صراعا ومنافسة وخوفا منها من طرف الساهرين على سهرات ليلة السبت على قنوات البث التلفزي المغربي. بقدر ما يدرك خطورة التدجين الذي يخضع له مشاهد التلفزة الوطنية بقدر ما يعي خطورة وأهمية عكسه وظيفة. لكنه لا يريد نفس التوظيف طبعا. لذلك حينما سألوه عن سر الاختيار، أجاب:

ـ أظن أنه لابد من مفارقة ساخرة تصدم المتلقي.

سنة 1995، كانت بداية عرض اللوحة المسرحية. تمت برمجة جولة عبر مدن مغربية كبرى: مراكش، أكادير، طنجة، تطوان، وجدة، الدار البيضاء، فاس، مكناس ثم الرباط. برنامج بقدر ما كان حافلا وممونا بشكل جيد وبدعم محلي ودولي، بقدر ما كان بداية شرارة اشتعلت لتحرق وتقطع حبل ود بدأ يضعف بين نادية وعمران. كان طلبها للفراق أفضل لهما كما عبّرت هي عن ذلك. كان رد فعله احتراما لقرارها ورغبتها. رتّبا له ما يلزم واحتفلا باستمرار الصداقة والاحترام الجامع لهما:

ـ لن يتغيّر شيء في علاقتنا رغم وجود عَقد الفسخ لها.

قبّلها ومسح دمعة ساخنة بشفتيه فابتلعها متذوقا ملوحتها ومبتسما لصاحبتها. قبّل جبينها وانسحب في هدوء من قاعة المطعم.

حرية جديدة وتحليق جديد. هكذا رفرف في دواخله همسُ بطاقة جديدة يحتاجها لعيش ما تبقى له من هذا العمر. وحيث لا راحة داخل العيش المؤسساتي. كل شيء يسير بعكس ما تحلم به الذات، كانت مؤسسة الحزب وجريدته محور تفكيره ومعالجته. كيف التخلص من شتى قيود غير مريحة؟

-

جلس لمدة أسبوع تقريبا بعيدا عن كل تواصل. احتاج لجمع شتات دواخله. حاسمة هي قراراته، نعم. لكن الانتقال لوضعية جديدة يحتاج منه إلى ترك نقع هذا العدو يذهب بغباره، إلى صفاء سماء من زوبعة غيوم متشكلة. بعض من هذا لا يعيه كأفكار، لكنه بحدسه يعلم صعوبة أي قرار. جزء منه تسكنه نادية، ولا يستطيع التخلص منه، كما لا يرغب. صادق هو فيما يفكّر فيه ويعبّر به كمشاعر. يوم اختار الارتباط بنادية لم تكن نقاط ضعف حاضرة ولا طمع مادي ولا تعويض ولا انتقام. هكذا واجه زخم مشاعرها ووهج اشتياقها للارتباط به بعقلانية هادئة. كان رفاق الأمس مشاركين في جلسة سمر وفي سماع ما يفكر فيه ويرغبه.

يجتاحه ذلك الشعور بالتكبيل وهو مقيد بالزمن والتوقيت والجدران والبيت. قلبه وقد أصبح يعيش حساسية تجاه الأغلال، معنوية كانت أو مادية. يبتسم لحديث سمعه وينقل تشبيهه لمساره وتجربته، فيؤوّله بما يراه مناسبا لثقافته. ذلك القلب وقد نُزعت منه النقطة السوداء. هي عند عمران كرة الخوف النووية التي تسكن أفئدة البشر عبر التاريخ. يرى في الظلمة الرؤيا، فيفسرها بما ارتآه فعلا. تهديد الوجود بالفناء هو ابتلاء البشرية بالوعي الذي تمتلكه. لو أن هذه البشرية آمنت بقانون الطبيعة وانتقال البقاء للنوع بقوانينه الدافعة، لعاشت بطريقة تسليم سليمة خارج الخوف المَرَضي الذي تعيش فيه وخارج قانون الترغيب والتخويف. ذلك الطمع المتبوع بعسر الحياة وامتحانها الثقافي الشاق.

لكن قلبه يخفق لفكرة الأغلال. لا يريدها حاضرة. يجد لنفسه مبررا للارتياح والانتقال من حال إلى حال. عزوبية جديدة هي، لكنها ضرورية لكي يشعر بهذا الارتياح. لقد عاش القفص الصدئ وعاش القفص الذهبي. تُرى، ما الذي ينتظر

هذا النورس في تحليق الحياة. يتفكر مسرحية سيرة نورس التي يخوض غمارها. هو وحده يعلم بأنها معركة داخلية يعيشها في تحدٍّ لشيء مجهول وجديد سيأتي مع الزمن. الحياة الجديدة بأكملها، لم تعوّضه عن سنوات الضياع والاعتقال. لم تحقق له ما ناضل من أجله وضحى من أجله. يهاتف حكيم ويدعوه للقاء جديد بالعاصمة الرباط في سكناه الجديدة بحي المحيط. وجودية سياسية، هكذا سمى اللقاء والنقاش.

حي المحيط بالرباط. لن يجادل أحد في كونه قد أصبح من أقدم الأحياء وأعرقها في اختزان ذاكرة المدينة، وبالخصوص الذاكرة الجديدة للتاريخ الراهن والمعاصر لها. ورغم كون الحي الذي استقر فيه السيد عمران بن يوسف، يعتبر من الشوارع النقية والنظيفة، لكونه يتضمن عمارات جديدة في جلها وبعيدة عن التموقعات الشعبية للتجارة والحركة الاجتماعية المرتبطة بها، فإن عمران لم يرتحْ له بال. ازداد قلقه مع الظواهر المتفشية والمتولّدة هنا وهناك. اجترّ تاريخ عقود للمدينة مفعم أو محتقن بما خرج من شوارعها من تظاهرات وما عاناه السكان من مشاكل.

كان حي المحيط امتدادا متوسعا للمدينة الجديدة التي رسمها وخططها المهندسون. لكن المشكل الطبيعي ارتبط بدرجات الرطوبة التي تسوده وتغطي جوانبه. ما من حديد إلا صدئ. أبواب ونوافذ وإطارات وسيارات... كم من أقفاص صدرية أُنهِكَتْ رئاتها، منضافة إلى السجائر وقنينات الإدمان الرخيصة. هجرت الساكنة ذات الإمكانيات هذا الحي، سواء إلى حي أكدال أو الرياض أو أحياء أخرى. في حين هاجرت إليه فئات اجتماعية جديدة ارتبطت بظواهر هجرة أو وظيفية مهنية. اختلطت الأمور والسلوكات. أصبح مكتب المحاماة بجوار معمل نجارة، ومطبعة ورقية بجوار خياطة أو صالون حلاقة... قاوم التخطيط العمراني هذه الفوضى، فتباينت الأزقة والشوارع في تناقضات شارخة. كما تباينت أشكال العيش بين اليسر والعسر، وازدحمت مداخل حي المحيط مع المارين والبائعين ومع أحياء القصدير التي عانقت رطوبة البحر ونافست النوارس في اقتيات من شباك سمك يتيمة يجود بها المحيط الأطلسي.

فيما تزايد اهتمام البعض بمفهوم الهوية، كان عمران من الذين انتصروا لمفهوم الحداثة. سيتقاطع مع أفكار مثقفين آخرين في الموضوع وسيشكلون حزبا ثقافيا خارج المؤسسات الحزبية السياسية التي تكبل أصحابه وصاحباته. هو قوس ابتسامة جديد تخندق للنجاة داخله من تدهور حلْم ناضلوا من أجله. لكنه قوس يقاوم بعناد هذا الواقع المتناقض. في نقاشاته الجدلية يربط عِمران بين العُمران والحداثة. يدعونه لشكلِ العين دائما. يبتسم ويسطّر بشفتيه ومدّه لهذا الحرف الحلقي البلعومي. يضع سبابته في لحظات الانتشاء ويصرخ: عاااااا.

حينما يعود لموضوع الحداثة ومقاومتها لتشويهات الرأسمالية الطبقية يضع التشبيه الذي يعجبه دائما في تبسيط المعادلة: الحداثة مادة نقية تلوّثها قوانين الرأسمالية. حي المحيط، كيف كان وكيف أصبح. أخذت الرأسمالية بمدينتها العمرانية ما أرادت وانتقلت إلى حي أكدال ثم الرياض وبئر قاسم... ههه... وتركتْ ما نراه من تناقضات وتراجعات وأوساخ وأشكال إهمال وتفشٍّ للظواهر السلبية...

كل هذه التراكمات الذهنية عند عمران بن يوسف زادته توترا على توتر. وكأن الزمن يعود به إلى الوراء بعقاربه لكي يختبره في مواقفه السياسية. أخرجته الجامعة بثورة حالمة بالمبادئ والأفكار والفلسفات الكبرى وإيديولوجياتها. تخرّج من مدرسة السجن الواقعية. عرّاه التاريخ من أوهامٍ وسحب عابرة. احتضنه وسط عمراني راقٍ وواعدٍ بالحياة. لَفَظه كحوت نافق إلى جانب البحر. اختنق بالرطوبة كما اختنق بالتناقضات الاجتماعية والثقافية التي أفرزت مدنية مشوّهة. ها هو الآن بين مجد النجومية الثقافية والإعلامية، وبين استفزاز الواقع السياسي والاجتماعي. كلها توترات ستزيد من حدّة النقاش مع رفيق دربه حكيم العمراني.

المرافعات التي يعرفها النقاش بين الرفيقين تصل إلى مستويات في التحليل الحاد والفارق بين النار والماء، وبين المطرقة والسندان في بعض الأحيان. مغترِبان في واقعية مُرّة أخرجتهما من سجن مادي لكي توقعهما في سجن من نوع آخر يعاني فيه الجانب النفسي أكثر، ذلك أن الوعي والمنطق والعقل، ما استطاعت كلها عناصر أن تقاوم مَدّ التغييرات والتنازلات المتتالية وأشكال الارتماء الغريبة في فم التمساح أو أنياب السباع...

يستفز عمران صديقه حكيم في مباركة وضعه الجديد ممازحا:

ـ تبارك الله على الرأسمالي الجديد. ها أنت أصبحت تستثمر وتربح وتطور رأسمالا وأرباحا وتخلق طبقية جديدة.

ـ لا أدري صديقي عمران إن كنتَ قد استضفتني لقول هذا الكلام المبارك أم لشيء آخر. إنما لكي أجعلك في مقام الواقع، ألا ترى بأنك تعيش على فضل الرأسمالية واللبرالية؟ ألست تنعم بفائض القيمة والرأسمال؟

ـ اشرح لي أكثر يا حكيم التجارة.

جلستهما ابتدآها في الحقيقة بحانة المنتهى التي تتخذ من تقاطع شارعين موقعا جميلا يطل على النافورة المستديرة وعلى محطة القطار المدينة. هندسة عمرانية جميلة تميز المدينة الجديدة بالعاصمة الرباط. مباشرة بعد وصول حكيم عبر القطار إلى محطة الرباط المدينة، وكأنهما في عطش أمومي وأخوي لحليب يرضعان منه مشتركين، بحثا عن جرعة باردة تطفىء نارا مشتعلة أو ظمأ يجفف دروب الحياة.

بمجرد السلام والاحتضان المتبادل بادر حكيم إلى التعليق داخل معطفه البني الدافئ وقبعته الوبرية التي أصبحت لا تفارق رأسه الذي فقد كثافة شعره:

ـ والله لن يخلّصك من هذا الترحال الذي كلّفتني إياه إلا كأس معتقة أو صبابة صهباء.

ـ هي ما كنت سأقترح عليك بدءا. حدسنا يشترك في نفس التنبؤ أظن. أراك بلباس موسكوفيتشي كامل.

ـ هه.. أنت يا عمران تعيش في العاصمة التي جمعت دفء الطقس ودفء السياسة والحياة. أما أنا فإنني آتٍ إليك من منطقة قارية. كل شيء فيها قاس، المناخ والبشر. ها أنت بلباسك الربيعي في فصل الشتاء. قميص مفتوح الأزرار وشياكة وأناقة حذاء. يا سلام. ظهرت عليك نعمة العاصمة.

ـ أنا الآن النورس الضائع بدون شواطئ يرسو فيها ولا مراكب يمتطي رحلتها.

ـ أراك شاعرا محلقا من جديد. ليت نورسك أسعفني في الإلهام والمصاحبة. أم إنك كنت ساحرا تمارس طقوس شعوذتك ولا نعلم؟

ـ أين تقترح الجلوس؟ بجانب المقصف أم حول طاولة؟

ـ والله العظيم يا عمران، اشتقت لبنات المدينة في الحديث والمناقشة وشم العطر. أعلم عدم مناسبة السياق ووظيفة الجلسة هنا وتأويلها الخاطئ. ولكن، هذا اشتياقي. لو تعلم أن مجالسة إحدى الفتيات هنا مفيد لإعادة الاعتبار لكل رجل ولكل من يرغب في معرفة حياة النساء وطبائعهن وهلم تأنيثا.

ـ قد أوافقك الرأي، لكننا نحن هنا الآن لنناقش ونستريح من وعثاء السفر.

ـ أنا من سافر وليس أنت. كنت أمازحك في الاقتراح فقط.

ـ أعلم ذلك.

ـ أراك في وضعية جديدة. سكن جديد وأنشطة ثقافية جديدة.

ـ سيطول الحديث وسيكون أفضل في الشقة. استمتع الآن بابتساماتهن يا لعين. رأسمال مجاني في الاقتناء.

وصلت سيارة الأجرة الصغيرة الزرقاء إلى مقر سكناه أمام بوابة العمارة. أعجب حكيم منظرَ البحر المترامي بأمواجه في منحدر الطريق الذي يعبر الرؤية من زاوية الزنقة التي يقفان فيها. رفع عينيه لتعداد عدد الطوابق الستة منبهرا بعلوها وشرفاتها. انطباع يختزنه كل زائر للمدينة من بادية أو من مدن صغيرة.

ـ أراكم "مبرعين" بناطحات السحاب.

ـ إنها ناطحات الكلاب. أيها الساخر اللعين. حتى دروس المقررات تتناساها.

ـ كيف ذلك؟

ـ درّسونا بأن ناطحات السحاب تصل إلى تسعين، مائة طابق.. ألا تتذكر؟

ـ وما تنفع الذكرى؟ أنا أبارك لصديقي ناطحته الجديدة.

ـ ههه... أرجو ألا تكون مما أكل السبع وعاف. أيها الماكر الخطير.

و يستمر حكيم في أسلوبه الذي اشتاق له عمران كثيرا في المزاح والمرح الذي اشتركا فيه إلى جانب الجحيم الذي تقاسماه. يعجبه كثيرا لجوء حكيم العمراني إلى عدم الحديث عن المرحلة بشكل درامي مؤلم. رغبته في عيش المرحلة والاستفادة من إيجابياتها التي تتماشى مع قناعاته الشخصية. هي الذات وتوازناتها كما يقول له حكيم بعض المرات.

قام حكيم ببَرْجزة أثاث الشقة، بدءا بالفوتوي والأريكة، مرورا على الطاولة الخشبية المنقوشة التي تزين وسط البهو ثم الغرفتين والمطبخ والحمام الرومي الذي يختم جولة استطلاعه على فضاء حياة صاحبه الجديدة.

ـ صديقك ضيف على الحياة في بلده. الشقة كانت لمحامٍ استغنى عن خدماتها بعد ترقيه اجتماعيا وماديا. بقيت فارغة، وبحكم علاقات حزبية وثقافية تجمعنا بالرباط اقترح عليّ أن أستغلّها وأؤدّي واجب كرائها الشهري. هذا كل ما في الأمر.

ـ أنعم الله عليكم بالعلاقات والاستفادات. أرى أن تجارتي لا تحقق لي كل هذه الامتيازات.

ـ أنت حر وتعيش حريتك داخلها. وهذا فضل كبير. أم تُراني أناقض ما تبنّيتَه؟

ـ بالعكس. ما وجدها أحدنا كيف رغب فيها. أنت تعلم بأن مرحلتنا الجديدة صعبة على شخصياتنا. وقليل من يدرك ذلك. الكل يلومنا على عدم الاستمرار في التضحية والمواقف المحتجّة ضد النظام وضد سياسته. وكأننا خلِقنا لكي نكون أصحاب خطاب وأصحاب ثمنه بحرياتنا وأرواحنا التي فقدناها في المعتقلات. لقد تعددت موتنا بل إننا متنا عدة مرات وما زلنا نعيش. أنتم الشعراء تعبرون عن ذلك بطائر الفينيق أظن؟

ـ أيها اللعين. ماكر حتى في الأسى. فعلا إننا طائر الفينيق المنبعث من رماد النار كما تعلم. ههه.. ها أنت تعلم وأنا أعلم. يكفينا هذا كاتفاق. إنما قل لي: هل الموت مذكر أم مؤنث؟ أراك تؤنثه.

ينظر إليه بطرف رؤية حذرة من سؤال فخ لا يعلم الشباك التي قد يوقعه فيها مع الجواب.

ـ أتعلم؟ أجعله مؤنثا لكي أساويَه مع الحياة في التأنيث. ما رأيك؟

ـ جميل هذا التوظيف.

ـ وأين ذهب النورس؟

ـ وكأنك توّلد قصيدة جديدة أو مشاهد مسرحية جديدة. هو الفينيق وهو النورس.

ـ أرجوك. ستجعل ثمالتي التي بدأت تنتعش بنشوة الكأس تطير. خفّف عليّ في التحليل والخطاب. لو كانت الأنثى حاضرة لعشنا اللحظة بَعِيدين عن السياسة وشقاوتها. هي بعطرها وحضورها سياسة جميلة في حدّ ذاتها.

ـ ماذا أقول لك؟ تعلم موقفنا أو مواقفنا من قضية المرأة. رغم أننا نمزح الآن، فإن تحقيقنا لتلك المبادئ يحتاج منا إلى تضحيات وإلى احتياطات حتى لا نسقط في تكريس رجعيات في المواقف والعلاقات. أنا الآن في مرحلة جديدة. ولا يمكنني الحسم بأن المراحل السابقة قد انتهت أو انقطعت. ما تزال وفاء حاضرة. كذا نادية وصباح وغيرهن. زهرات حقلي الصغير، لا يمكنني الاستغناء عنهن أو اقتلاعهن من مُرُوجه العاطفية.

ـ يا سلام. هذا التحليل يعجبني عندك. تعلَم لو كنتَ قد قبِلت العملية الانتخابية وترشحت لها بدل مقاطعتها وخلق خصومات بسببها داخل الحزب وغيره، لكنتُ صوّتت عليك إن نزلتَ بمشروع انتخاب يتضمن هذه الفلسفة. لكن عليك أن تجعله يتحقق عند كل من صوّت عليك. مفهوم؟

ـ إييييه. وإذا لم يصوّت عليك قلبك، ما العمل؟

ـ سؤال صعب يا عمران بن يوسف، وأنا مجرد ضيف عندك في الرباط.

تشتعل عيناه ابتسامة وانشراحا وتفهّما وتقديرا لجواب صديقه عمران. ملامح تبدي استعداده لمناقشة تلك الدواخل العاطفية والمواقف السياسية الجديدة والتناقضات الموضوعية التي تعْلق فيها ذات عمران كما حكيم كما غيرهما. ودخلا إلى النقاش الصعب الذي يخط الطريق السيار والمعبّد للتاريخ. بدآ في تقويم المرحلة والتجربة السياسية الجديدة للكتلة ولليسار. بدآ في محاكمة مواقفهما ومدى موافقتها لمبادئهما التي انطلقا بها ومنها منذ أيام الجامعة. لماذا ضحينا بحياتنا في كهوف جحيم منسية؟ كان هذا سؤال المنطلق الذي سيعطي الشرعية لجذرية كل تحليل يسلكانه أو يصلان إلى استنتاجات داخله.

كانت ليلة بيضاء. الخامسة صباحا وفنجانا قهوتهما تتصاعد منهما رائحة وبخار. بقايا سندوتشات أسعفتهما بها مطاعم الحي الليلية. لم يتبقّ من الفواكه اليابسة إلا قشورها، ولم تعدْ المسانيد في وضعيتها المرتبة والمنضدة والمصفوفة.

جلسة تدرجت بين المواضيع فكانت الذات هي المحك وكان الاختلاف منطلق الاتفاق بينهما. أحزنهما خبر وفاة صديقهما نورالدين في حادثة سير قاتلة والتي حضرا جنازتها قبل شهر ونصف. وكأن ما حصده الزمن غير كاف لكي يعود ويقطف ما يشاء من مجموعتهما. شمعات أصبحا يخافان عليها من كل مرض أو تهديد. اتفقا على جعل زيارات كل مرة فيما بينهم وتفقد أحوالهم ومساندة بعضهم للبعض الآخر. أما سياق التحليل السياسي فقد كلّفهما اتخاذ مواقف جديدة وتغيير تعاملهم مع الأحداث.

طبعا، فقد كان حكيم العمراني قد تفرّغ للتجارة، لكن الكل يرى اختياره سياسة جديدة. المضحك في المسألة كما يروي لصديقه عمران، أنهم يظنون على أنها خطة جديدة لتمويل عملهم السياسي السري. حكامة أكثر في تملك وسائل إنتاج الثورة.

ـ هؤلاء الخائفون من كل تغيير، يرون المسألة بهذا الشكل. والمشكل أن الهاجس والتأويل يأتيك من المواطن العادي الذي يريد التكلم في السياسة مع فنجان قهوة وينتهي معه. ما بالك بمتتبعي خطواتك.

ـ أنا أراك في ليبرالية حرة داخل نسق رأسمالي. ما رأيك؟

ـ أنت أقرب الناس لحالي وظروفي وفهمي يا عمران. ربما سنسقط في جعجعة أصولية يمينية بهذا الفهم. هي واقعية بسيطة. من يمتلك وسائل الإنتاج يقود الاقتصاد ويتحكم في السياسة. وإن كنتُ بعيدا عن هذا الهدف، لكنه نقطة الانطلاق، ولست مثاليا في الادعاء بأن خطوتي هي البداية. حياتي الشخصية بسيطة. جنيت الألم واليأس من أفكاري أكثر مما جنيت شيئا آخر. لقد سقطنا في رجعية تحليل وخدعتنا طرق تفكيرنا. انظر إلى الحلول التي نراها للمستقبل. إننا نضعها انطلاقا من نجاح تجارب أمم سابقة وشروط تاريخية مغايرة. نراهن على المستقبل بشروط ماضية. وهذه قمة الرجعية.

ـ في هذه النقطة أتفق معك. وحتى المرحلة التاريخية الجديدة التي نعيش فيها تغيرت جذريا عن المرحلة التي واكبنا فيها نضالات جماهيرية خلال السبعينيات والتسعينيات وما بينهما ثمانينيات وراء القضبان. انهار المعسكر الشرقي. كنا نراه ملجأنا ونموذجنا وبديلنا بالقوة والمادة والفكر لكل هذا العبث الوحشي الإمبريالي. نحن الآن في واقعية شرعية الأفكار وهزيمة الواقع. التراجعات كبيرة جدا. بل إن خيانات وانعطاف عن الخط بدأ يتكاثر منذ بداية التسعينيات. تخلى الجل عن المبادئ العادلة للتغيير والثورة. استسلم لقائد السفينة الرأسمالية وقدّم له الولاء وبرهن له على توبته مما سبق. التاريخ ذكي يا حكيم، ونحن أغبياء. يخدعنا في أفكارنا. قد نكون على صواب ونتراجع عنه، فيضحك هو على غباء انحرافنا ويبين لنا أن الصواب أضعناه.

ـ أراك في ملحمة جديدة يا عمران.

ـ كيف ؟

ـ حين لقائنا أشرت إلى أسماء أنثوية متعددة. نادية وقد افترقتما. ما جديدك وما التزامك؟

يربت على كتف حكيم ويقضم حبة لوز متبقية في صحنها الصغير ومستكشَفَة بين بقايا قشور زريعة اليقطين البيضاء. يفكّر من أين يبدأ، وكأنه يحتاج داخل هذا البياض والاستيقاظ إلى سماء يرسم فيها لوعته ويعكس فيها مرآة نفسه.

ـ أنا الآن في استراحة شخصية. لا أخفيك أن الزواج قيّدني في أفكاري قبل مواقفي وسلوكي. لا ألوم التجربة ولا الشخصية. هي الحياة. ربما أصبحت عندي حساسية لكل التزام يغاير التزاماتي السياسية. أصبحت أشعر بضيق حال وشعور هنا بالعاصمة. ولا أخفيك أمرا كذلك. تجربة العمل المسرحي جنت علي في التفكير في تحليق خارج البلاد. العيش بعيدا عن منتوج المرحلة التاريخية التي أنتجت عمران بن يوسف. ربما يمكنني رؤية ذاتي ووطني من الخارج أفضل. خشبة المسرح شخّصت لي المسار الواقعي لنفسي هنا. الأفق مسدود وتحقيق أهدافنا مستحيل. هل كان حلما وأفزعه الاستيقاظ على صوت وصورة وحش الواقع؟ هل كانت مثالية جنت على ذواتنا فلم نعد قادرين على العيش في الواقع الحالي ولا مرحلته الراهنة؟ قبل أن يحكم أحدهم على تجربتنا، سأخلّصه من مشاق ذلك. هذا عمران بن يوسف. كلمة الأنبياء بين حروفه، وسيرتهم بين شعوبهم في تجربته. أعلن أنني بمبادئ الاشتراكية وحلمي الشيوعي، أنصرف للتحليق والبحث عن سماء جديدة. *ما دامت الجماعات قد اختارت الارتماء في رضى المرحلة وتوافقاتها البعيدة عن الكرامة لروح الشهداء وأهداف النضال ومصالح الجماهير، فإنني سأعيش في الظل بعيدا عن السياسة قريبا من الحب والثقافة والفن.*

يستلقي عمران فوق الفوتوي البني ويمدد رجليه في تثاؤب واسترخاء للعضلات ويسأل بعد صمت فرض نفسه على إيقاع هذين المتحديين لقانون الليل والنهار:

ـ ما رأيك؟

ـ كيف ستحقق ذلك؟ هذا هو السؤال.

الواجهة التي أجّل كل مرة أن يجعلها دربا عمليا ويوميا للنضال كانت هي الواجهة الحقوقية. كان التحفظ في درجة الفعل السياسي التي يحققها هذا من ذاك، السياسي من الحقوقي. لكن، ما كان أكثر تأجيلا هو الشعور بكونه ضحية تحتاج إلى إنصاف، ولا تريد الإنصاف من جهاز يسهر عليه من كان سبب اعتقاله. لم يؤمن عمران بن يوسف بحل وسط في السياسة كما في الحب. اختار الاعتقال ولم يرغب في توقيع بيان تنازلات سياسية. لم يوجّه رسالة طلب عفو. هو يعلم كل هذا. يكفيه أن يكون صادقا مع قلبه ومع ضميره. ولذلك كانت تأملاته جلسات توازن وحوار داخلي.

مر على تأسيس المجلس الاستشاري ثمان سنوات، منذ 1990. انتظر داخل الحقل الحقوقي أن تكون المؤسسة أكثر تحررا واستقلالية. رافع ملفاتها الحقيقية وطالب مع من طالبوا بتسوية الجلاد والسجين في المعالجة. لم يلبوا طلبه ولا سمعوا لرأيه. يعلمون الحرج، والحرج موقف سياسي. يعلمون الصمت والهروب إلى الأمام، وذاك الهروب رجعية منفلتة إلى الفشل وعدم التقدم مع التاريخ وقانون تطوره.

ينظر إلى الساعة اليدوية التي أهدته إياها وفاء في آخر لقاء بينهما. ماركة رفيعة يتابع بها نبض الزمن والمشاعر كما السياسة. الساعة العاشرة وواحد وأربعون دقيقة. عقرب الثواني لا يكل في ملاحقة قلب أحمر صغير لاصق برأس سهمه الأزرق. حرف محفور على القابضة اليدوية بالدابليو(W). يبتسم للتحدي الهادئ الذي يخوض غماره قلب أنثى لا تريد التنازل ولا التخلي عن قبضة جوهر بَنَتْ به سفينتها. وفاء، رغم استقرارها الأسري وكبر ولديها ترفض التخلي عن وفاء الطالبة والمناضلة،

وفاء/ عمران. لا تطلب المستحيل، كما لا تغامر بأكثر من اللقاء والحوار. ربما العيون تنوب عن تبليغ المراد فتحققه دونما حاجة إلى تورط. هي تعلم بالحضور الأنثوي في حياة عمران ولا تعترض عليه. تسأل عنهن وتقاضي تصرفاتهن مع عمران. يضحك ملء شدقيه لانفعالاتها وصرخاتها الهادئة في كل لقاء بينهما بمطعم أو مقهى. كان نصيب صباح من خرجات الغيرة أكبر حين مشاهداتها المتكررة للمسرحية أو حين متابعة الحوارات الصحفية معهما أو حينما قابلتها في جلسة عمران في إحدى زياراتها للعاصمة الرباط.

أصبحت علاقتهما متميزة منذ نجاح العروض الأولى. ولعل نادية استشعرت المنفلت من قبضتها فأرادت الحفاظ على كرامتها الأنثوية. خلال السنوات الأولى، تطوّر العرض إلى ترجمات وعروض في الديار الأوربية أولا ثم بعض دول أمريكا اللاتينية. بكى الجمهور هناك في الأرجنتين والشيلي. عانقوا عمران وصباح. جعلوا لهما نصبا من رمل في مواجهة رياح جنوب المحيط الأطلسي قريبا من مدينة فيديما في إقليم شوبوت. جلس الجمهور ينتظر الهبوب القوي والاندثار لحبات الرمل مع صوت الهدير وقراءة قصائد سياسية لمعاناة الأرجنتينيين مع أعتى الديكتاتوريات هناك، والتي قادها خورخيه رافائيل فيديلا فشرد وقتل ما يقارب ثلاثين ألف من المعارضين خلالها. قرؤوا للشاعر الشيلي بابلو نيرودا، كما لبورخيص قصيدته عن البحر:

البحر

قبل أن ينسج حلْمنا/ رعبنا، الإنساني

الأساطيرَ، حكاياتٍ عن نشأة الكون، والحبّ

قبل أن يسكَّ الزمان عنصره في أيام

كان البحر... الدائم، موجوداً: كان.

من هو البحرُ ؟

من هو ذلك الكائن العنيف والعتيق ؟

الذي يقرُض أعمدة الأرض

و هو في الوقت نفسه أكثر من محيط

و هاوية، ومجد، وصدفة، وريح ؟

من ينظر إلى البحر،

يراه كل مرة، لأول مرة.

بالعجب الذي نستلّه من الأشياء الأولى،

من الأماسي الجميلة،

من القمر،

من وثبة النيران،

من هو البحر ؟

و من أنا ؟

هذا ما يفصحُ عنه اليوم التالي لعذابي الأخير.*

...

الموسيقى الكلاسيكية تعاند هدير الأمواج، وصفحات الوجوه مواجهة للفحة الريح وحصى الرمال. تغيرت الملامح والقسمات. مارست قطرات المطر عزفها عل هذا النصب فبللته وشاركت في التساقط الناعم والتمازج مع الأرض بدل أن ينعدم في لا اتجاه.

تسمع وفاء تقريرهما ومناقشتهما للرحلة ولمناخها الفني والثقافي فتبتسم وتذرف الدموع لكونها غائبة عن لحظات فرح ومجد يتمناها كل مناضل أو مناضلة، وأكثر ما يمتناها حينما يتحول إلى مثقف مبدع وفنان مؤدٍّ يساهم بعطائه في تغيير العالم وأحداثه. سمّاه عمران مع اطلاعه على التطور المعلوماتي وثقافته ومعجمه بالنضال الناعم. وحيث أصبح بمقدور الإنسان أن يصبح كونيا أكثر مع هذا التطور، أصبح بمقدور المناضل أن يكونه كذلك: المناضل الكوني العولمي. تصورٌ خلَقَ هيئات وجمعيات وجبهات للعمل السياسي الملتزم والعابر للحدود والمشترك في قضايا إنسانية أكبر.

ها هو عمران وقد تقلّد مهمات داخل الجمعية المغربية لحقوق الإنسان وشارك في مناظرات وندوات، ينتقل إلى العضوية الدولية وتمثيليتها في مجال البيئة وفي مجال مكافحة الاستبداد والإرهاب والاضطهاد السياسيين. قضايا متعددة كحماية الأقليات ومساندة الشعوب التواقة للتحرر من قبضات الاحتلال المباشر على الخصوص. ساعدته اللغة الإسبانية التي يتقنها منذ طفولته تداولا، ومنذ تعلّمه لها

*- النص أصلا للشاعر الأرجنتيني خورخي لويس بورخيص (1899 - 1986). ترجمه الشاعر العراقي سركون بولص (1944 - 2007).

خطابا وكتابة، على أن يحضر ممثلا للجمعية الحقوقية في ورشاتها وأنشطتها بشبه الجزيرة الإيبيرية وبأمريكا الجنوبية. وحيث كان شمال المغرب يعيش تحت الاحتلال الإسباني وثقافته واقتصاده، وما يزال الامتداد الثقافي المرتبط بكل ذلك، كان المشترك في التداول الحقوقي المتقاطع مع القضايا الإنسانية حاضرا.

رفع تقريرا مرفقا بمستنداتٍ وصور ومقاطع فيديو استطاع الحصول عليها، إلى الهيئات الدولية المكلفة بحماية البشرية من الأسلحة الكيماوية. أثار حرب الريف وشرعية المقاومة في كل ذلك وما رافقها من تحالف ديكتاتوريات للقضاء عليها... نال عضوية شرفية وأخرى عملية داخل جمعيات أوربية محلية ودولية. وتطوّر التفكير في الاستقرار الجديد خارج الوطن وداخل دائرة خطاب جديد يرتبط بما هو حقوقي والذي يتضمن القضايا السياسية وغيرها.

كانت هذه إحدى بواعث عمران التي ناقشها مع حكيم وغيره من رفاق درب أمس. لم تكن ارتباطاته الداخلية مطمئنة أكثر. لم يشعر بتحرر أكبر. خروجه من الاعتقال ربما كبّل قدرته على اتخاذ مواقف أكثر جذرية وصراحة وجرأة... وكأنه اشترى حريته الجديدة بعد السجن المركزي... وكأنها مساومات تمت وقد يسميها هو أو غيره ثمن الحرية وشرطها الجزائي... وربما يسميها غير ذلك. يتتبع جمهورُ القراء والمناضلين والمهتمين سيرةَ النورس السياسي والحقوقي. يقرأ عمران معه العنوان الجديد على صفحة الجرائد الوطنية والإسبانية: رسُوّ النورس الأديب فوق أبراج سواحل كاتالونيا... ويتابع القراءة والتحليل.

يأخذ زفيرا هادئا يُخلّصه من ترسبات أفكار مشوشة له ولرفاقه وأصدقائه الذين يتتبعون أو يشاركون مسيرته الثقافية والحقوقية والسياسية. يدشن المرحلة الجديدة بعرض مسرحية (سيرة نورس). تتألق صباح من جديد كفنانة ملتزمة بقضايا نبيلة

وإنسانية. يختتمان العرض بمشهد جديد ينضاف إلى القديم من المشاهد، حيث يرافع النورس الماء والسحاب، وحيث يخاطب إله البحر (بوسيدون) إلهة الجمال والحب (أفروديت)، حول مسار النورس الجديد وجزيرة أحلامه الجديدة، يبكي ويرافع لقضيته أمامهما وأمام باقي آلهة التيمات الوجودية الكبرى في فلسفة حياة الإنسان:

ـ تلك أجنحتي وهبتها لإله الريح لكي يخلّصني من القضبان التي تنخر كياني كسهام موجعة. كنت القربان الذي تعرّض للطعنات نيابة عن الضحية. وما شبع الجلاد. وما خلدت روحي ولا انتهى سفري. ربما يضحك عليّ سيزيف في كون تجربتي في التحليق هي موعد مع المجهول المتجدد والمتشرنق. ربما أتحداه في كوني لا أكرر الفعل هباء دون جدوى. ولعل الجدوى هذا الصوت الذي تسمعونه كل حين. أنا نورسٌ خلودُه الكلامُ.

احتاج عمران في مرحلته الجديدة أن يعيد اكتشاف العالم الأوربي والغربي. قد يكون مدخله هو عالم الأدب. نظّم وقته ووزّعه بين العمل اليومي المرتبط بالمؤسسة الحقوقية التي يساهم في أوراشها وكتابة تقاريرها وصياغة بياناتها مع اعتماد ترجمته العربية لها، وبين متابعة الدراسة وتحضير دكتوراه في الأدب الغرائبي وحضور البعد النفسي فيه. احتاج لإعادة اكتشاف رواية ميغيل دي تيربانتيس سايبدرا (دون كيشوت ديلا مانتشا). استحضر السيرة الذاتية وأثرها في الإبداع الأدبي. جعل ذاته داخل قفص الاشتغال المختبري الأدبي. كان هو من تتبع وعالج القراءات النقدية التي تمت حوله. وكان الانفراد في نوعية العمل الذي أقدم عليه والذي جعل التنويه به وبطولة وشجاعة صاحبه.

بين الحين والآخر، يستقبل عمران بن يوسف بعضا من أصدقائه وصديقاته. يلتقي من اختار منهم المنفى، فيسجل شهاداتهم وحواراتهم ويضيفها إلى ما حاوره فيه بعض الصحافيين والصحافيات. أخرج بعد سنتين تقريبا، وقبل أن يناقش رسالة الدكتوراه بستة أشهر كتابا اختار له عنوان: **سيرة منفى، اجتراح الذات على حبل غسيل من نار.**

كان لنشره باللغة الإسبانية دور في تداوله السريع وتوقيعه بمختلف المدن الكبرى سواء بإسبانيا أو خارجها، وكذا بأمريكا الجنوبية. واختارت مدينة تطوان أن تكرم اسما أدبيا وحقوقيا وسياسيا وثقافيا من خلال توقيع هذا الكتاب.

كان عمران يُبْحر في رحلة ذاته الجديدة واكتشاف درجات تحررها التي ما تزال ظمآنة لها. لم يجدها في السياسة، بقدر ما وجدها في حياة مدنية يومية، وفي وجودية

فلسفية تتصور الحرية كلقمة الخبز اليومية التي لابد من تهذيبها ورعايتها وتطوير أصيص صيرورتها في الريعان والفيح. أفكار سجّلتْها حواراته الإعلامية المتنوعة وشهاداته خلال اللقاءات المختلفة. كتب قصيدته التي تنضاف إلى نادر ما كتب من شعر، صدّر بها بيانه حول الحرية:

دعني أختار

هذا الكأس مليء بالخمر

أو بعصارة النباتات السحرية

أو تلك الجزر النائية

عطر انفلت من جسد أنثى

قد يؤدي إليها

و قد يغوص في الأعماق.

دعني أختار

علّه خلاصي فلا أقربه

علّه علتي فأجرعه

دعني اختار.

السيدة وفاء...

يشاء القدر أن يرسم مراحل تاريخية وشخصية جديدة للإنسان. قد يجعل المعادلة صعبة لكنها تتضمن شجاعة انتقال وولادة متجددة.

ربما هي السيدة وفاء داخل هذا القدر. اختارت رهان الحياة الجميلة. كانت نظرتها لمحيطها عميقة ومتأنية في تدقيق تفاصيل كل شيء. تحتاج إلى جهد عقلي ينطلق من تجربتها ومعرفتها وحكمتها لكي تضع الشيء في ميزان حكمها وذوقها واختيارها أو إقصائها.

هكذا هي شخصيتها التي كان على عمران أن يفصّل خصائصها في رسالة مكتوبة سلّمها لها يدويا وتحت طلبها. أرادت منه أن يصفها ويتعمق في تشريحها أكثر بعد مراحل عمرية زاخرة تجاوزا خلالها الأربعين سنة بشكل متفاوت. كانت السيدة وفاء في الثانية والأربعين من عمرها. أمّ لولدين، لكنها الأرملة التي فاجأها القدر بوضعيتها الجديدة. مسحت دموعها من فوق خدّيها. عانقت شبليها اللذين ما فرّقت بين ذكورتها وأنوثتها. رافقتها ورافقاها في رحلة الحياة والدراسة والسفر والاكتشاف ونمو الشخصية، وهي السيدة العاشقة للحياة والألوان والعطر واللباس الرفيع والكعب العالي والأناقة في كل شيء. فكيف سيكون نتاج تربيتها ما لم يوافق هذا الألق والرقي.

في صباح مفاجئ، خرجت فيه إلى العمل، رافقت ابنتها لتصل إلى مدرستها الثانوية، بينما ذهب عمران الابن مع أصدقائه راجلين إلى حيث مؤسسة دراستهم في زاوية قريبة من المنزل بشارع الرباط. بقي زوج السيدة وفاء في غرفة نومه. ظروف صعبة يمر بها بعد أن تراكمت عليه ديون في مشاريعه داخل المقاولة التي أسسها منذ

سنين. خيانة عهد وأمانة وغياب التزام من طرف من شاركهم الثقة وغامر بها في توقيع على أوراق مكلفة ماديا والتزاميا في الأداء. مرت سنة ونصف على هذا الحال وهذه الأزمة. لم يجد بدّاً من الاستعانة بزوجته التي اقترضت دينا لمساعدته، ثم كانت هي التي التزمت بتكاليف الولدين في الدراسة والحياة وفي تسيير شؤون البيت ومصاريفه. كانت الخادمة والمنظفة للعمارة التي يقطنانها هي التي اكتشفت الجثة الهامدة بجانب الأريكة في بهو الصالون.

وكانت المرحلة الجديدة التي واسى فيها المجتمع السيدة وفاء وساندها بما أوتي تضامنا معها، بمن فيهم السيد عمران. هذا الذي أتى من الديار الإسبانية لكي يقدم واجب العزاء. استطاعت أن تقاوم وتصمد. كان لزاما عليها أن تؤازر ولديها عاطفيا حتى لا ينهارا، فخلقت من دواخلها القوة والشجاعة والتحدي والضبط للكلام والتصرف. امتلكت مع كل ذلك مواصفات المرأة الحديدية التي ستقود السفينة بمفردها مع ولديها.

بكت، نعم. لكنها بكت للّحظات الجميلة كما للتوترات التي رافقت مرحلة ما قبل الوفاة. صدمتها الموت كما كلمة سكتة قلبية. ساندت زوجها بكل ما أوتيت، لكنها لم تستطع إرجاع الحياة والأمل له في كل ذلك.

جففت دموعها وابتسمت. تذكرت مع ذلك احتجاجه ولومه لها خلال أوج مراحل توتره:

ـ أصبحت تهتمين بالأولاد أكثر مني.

ـ اسمع يا سي محمد، أنا أبذل قصارى جهدي في كل شيء. ثم إنني منذ تزوجنا أعاملك بكاراميل ديال" الرومانسية...

كانت علبة الشوكلاته والكاراميل ما تزال فوق منضدة الزينة. لامستها بأناملها في آخر شعور بالاشتياق. ترحمت على روحه وقامت لتواجه مسؤوليات الولدين والحياة.

إنها بداية القرن الواحد والعشرين. بين عمرانين في الحب والتقدير. بين جرحين يقتسمان الماضي والحاضر. احتاجت لمساندة عمران بن يوسف خلال هذه المرحلة العصيبة. حاول خلالها إخراجها من كل حزن يمكنه أن ينال من أنوثتها ووهجها. داخل الألم ولّد لها الابتسامة. أحبّ كثيرا انتظارها لرأيه وإطرائه وتعليقه مع كل بكاء مفاجئ في لحظات الضعف أو كل مناقشة جادة حول مشاكل الحياة.

تستغرب لحالها. وكأنه بلسم الروح الذي يشفيها من معاناتها. لكنه هو فعلا. كانت المرحلة الجديدة والسنوات الجديدة خير برهان على أن عمران بن يوسف هو ربان السفينة التي ستنقذ ملكة عرش السيدات من الغرق وصفعات الأمواج العاتية. وكان الربان نورسا حكيما وعليما بالعواصف والرياح ومفاجآت الماء والسماء.

(أنت سيدة متجددة الأنوثة. متجددة الشباب. متألقة الحسن والجمال. مثل ماذا ؟... مثل جبل ثلج. كلما تساقطت عليه الندف تحوّل إلى ألق وضياء. أو إنك مثل السماء أرقى وأحلى. نعم. كلما ازدادت سنة في رحلتك، كانت مثل نجمة ازدادت معها قبة السماء ضياء ووهجا. وكان وجهك قمرا وعيناك بريقا ممتلكا للوحة والمشهد.

و ماذا أقول عنك الآن؟ السيدة الحرة؟ ملكة الابتسامة. جوكندا حية تزيدها الحركة رونقا وكمالا. كلامك الذي أصبح بلغات العالم ثقافة يفتقرها الجل منا من الرجال ومن النساء.

لا أدري ما هو الشعور الذي أصبح يخالجني ويسكنني وأنا أخط هذا الكلام. وكأنه ساحر ينفلت من قبضتي لكي يمارس حيَله وعروضه في الجذب والانتباه والتشويق والفضح والبوح.

بقدر حماقاتي في الكتابة وفي مغامرات الحياة بقدر رزانتك وتعقلك وتأنّيك. أنت بديلي الذي لم أكُنْه يا وفاء. أنت الأسرة التي لم أنشئها يوما. ها أنا في غربة ووحدة الذات رغم رحلة حياة بحجم معارك التاريخ في التحدي والمقاومة وشجاعة المواجهة وقناعة الموقف والخطوة والاختيار. نعم هو اختيار لي في كسر أغلال وقضبان أقفاص طالما شعرت بتهديدها لحريتي داخليا أكثر منها خارجيا.

قد يكون البرهان على ما قلته الآن، وضعيَ الحالي في الديار الإسبانية. وأنا أعلم أنني ضيف رغم توفّر كل شيء. رغم أوراق الإقامة وتسهيلات العيش ومسؤوليات السياسة والعمل الحقوقي. رغم السفريات المتعددة والشخصيات المهمة التي تملأ حياتي. يقف عمران وإحدى ركبتيه مملوءة بالفراغ. أحتاج إلى دعمها بوضع كفي على جانب خصري في كل كلام وكل صورة وكل حركة جديدة.

تعلمين يا وفاء، وها أنا أكلمك عن نفسي في انتقال بين شخصيتك وذاتي، ـ حاسبيني على هذا حين اللقاء ـ، كانت ملاحظة صديق وطبيب نفسي وحقوقي مهووس بتتبع الظروف الصعبة وفضح مسبباتها. تفسير حركة كفي الأيسر في وضعه على جانب خصري في وضعيات متنوعة. ضحكت كل مرة حين تذكر ملاحظته. ما تزال صورة لي أيام التعليم الإعدادي بنفس الوضعية. أبرّىء بها نفسي من كل تحليلات الطب النفسي وهذا الصديق المجنون.

سأتخيلك تضحكين الآن حين قراءة هذه السطور أو حين ترفعين السماعة أو الهاتف المحمول لكي تصرخي بضحكتك الملائكية تعليقا سيسقي فؤادي في ليلة باردة من ليالي القرن الواحد والعشرين.

هيه. وجدتها. ليست تفاحة نيوتون طبعا. فأنت تفاحتي وجاذبيتي رغم تواجد كل نساء العالم حولي. هاتفيني لكي أخبرك بما وجدتُ. كفاني هذيانا في حضرة الحكمة وسيدتها).

يقيم السيد عمران بحي سانت بوا دي لوبركا. يتحرك بين مناطق المدينة واتجاهاتها يوميا قاصدا الأماكن التي يلتزم فيها بمهامه وعمله الجديد. يوميا خلال أربع مرات في الأسبوع، من الاثنين إلى الخميس، يقرأ التقارير التي يتوصل بها بمقر المؤسسة الحقوقية، يكتب التعليقات ويحضّر مداخلاته التي يرسلها إلى باقي الأعضاء والهيئات التي لها ارتباط وعلاقة وتقاطع.

كان ما اكتشفه مع طائرة الحلم والسماء، مع سيدة الحكمة والضياء ـ كما سمّاها ـ، مع السيدة وفاء، مرتبطا بذاته ووجودها وفلسفة عيشها. ربما هو حلم شعري ومتخيّل يحلق به من جديد كنورس كل مرة في فضاء. عمران بن يوسف يعيش في الزمان ولا يعيش في المكان. تحديد دقيق لابد من فهمه واستحضاره. لم تكن برشلونة ولا غيرها من المدن الإسبانية القريبة والتي حاول الاستقرار بها، بكافية لكي ينعم بحطّ الرحال الذهنية والتواصلية والعلاقاتية فيها.

كلما حل بمكان تفتقت رؤى جديدة، واخترقت ذهنه عوالم جديدة تحتاج للاكتشاف والغزو والحلول. تمزقت بُنى قديمة نسجها المكان القديم وأراد قولبة الذات والتسليم بقدرية معطياته وتجمعه البشري. يجلس قبالة النافذة العريضة. تتراءى له الأحياء والعمارات بقرميدها الأرجواني الفاتح. يروّض عينيه ويريحها بالخضرة المنفلتة هنا وهناك. من بعيد يجعل الطبيعة بنت اللامكان حيث مدن الإسمنت المكتسحة للوجود المعيشي. ويقلقه أن يرى ورش بناء جديد ضخم يأتي على الأخضر واليابس. هنا بهذا الحي في هذا الصباح الباكر، كان عليه أن يهدأ من ملاحظات المجال لكي

يتفرّغ إلى مداخلته التي سيلقيها في ندوة دولية تحضرها هيئات حقوقية مرتبطة بموضوع الأقليات والحق في تقرير المصير.

كم تفادى أن يبدي رأيه الخاص في شتى مواضيع حتى لا يسقط ذاتيته في اشتغاله الموضوعي. لكن التفريق بين الطرفين صعبٌ جدا خصوصا في شؤون وقضايا السياسة والحقوق. الموقف قناعة، والقناعة التزام وسلوك وتعبير وتوجيه تعامل:

(هل كنت في حاجة لكي أخرج من بلدي وأستقر بهذا الإقليم، وهذه القارة؟ أردت تحرير ذاتي من مواقف سياسية ضيقة وأخرى ثقافية وحقوقية جمعوية. أردت القيام برسالة العالم كنورس لم تعجبه قوانين المرافئ، فقرّر أن يعمّم نداءه في جميع الموانئ. كنت كالموج الذي حكم عليه بالمد والجزر وزيارة كل الشواطئ ومخاطبتها السيزيفية بهدير وجودي عميق.

اسمحوا لي إذا بدأت كلامي بهذا البيان الأدبي وأنا على علم وقناعة بأنكم تقدرون الوصف الأدبي وقيمته ودوره في التعبير عن الذات وبلوغ المرام في القصد. ومع سياق المداخلة، أعود لأذكر بالسؤال الجوهري الذي سأطرحه كالآتي:

هل كان للحرب الباردة دور في صناعة صراعات وصنع أقليات وخلق دويلات وتمزيق شعوب؟

كلنا يعلم دور الإمبراطوريات والحركات الاستعمارية في تحقيق ذلك. كلنا يعلم حكمة ومنطق : (فرّقْ تَسُدْ). «Divide y vencerás»، Divide and rule . ...Diviser pour dominer

إنني أخاطب الوعي الثقافي المستقل في الخطاب السياسي عند كل الحاضرين من أشخاص ذاتيين أو معنويين ممثلين لهيئات ومؤسسات. أما نزال نمارس أضحوكة صراعات ولت مع معادلات الصراعات الكبرى التي كانت بين المعسكرين، الشرقي والغربي؟ ها نحن اليوم أمام وضع جديد وعولمة جديدة ووحش جديد يتغذى على الحروب والدماء، ويعتبر العالم كعكة مشتهاة في التقسيم والتوزيع لخيراتها بين بطون الشركات المتعددة الجنسية. إنه أخطبوط ضخم يلتهم كل شيء.

سأنطلق معكم من ذاتي وبلدي. ربما سأُغضب كثيرا من الأطراف. لكنني تعلمت الصراحة من العالم الكبير ألبرت إينشتاين. وأنا أؤمن بأن العيش في حرية هو العيش في الصراحة والوضوح مع الذات مع المواقف.

في بلدي كان الصراع قائما حول الأقاليم الجنوبية. في بلدي كانت أطراف سياسية داخلية وخارجية تتسابق الخطى حول التهام هذه الأقاليم. في بلدي كانت السياسة فردية وربما ما تزال في اتخاذ القرار. كان الظلم والاعتقال يمارس على الجل وليس على إقليم دون آخر. كان الانفلات من العقاب وربما ما يزال... في بلدي كل هذا وذاك. أنتقد لكنني أنتصر للحقيقة وما وراء الحقيقة.

أعود لحق تقرير المصير، وأعود لهذه الذات المتكلمة أمامكم. كنت أرفعه كشعار في صراع مع النظام. كنت طالبا في كلية أمارس النضال من داخل قلعة الجامعة وقلعة الذهن. أصبحت أعيش خارج الأسوار والأبراج الحارسة. أصبحت أرى ما وراءها. وجدت حراس المصالح الأحادية العالمية هنا وهناك. بربكم وبما تؤمنون به كمعتقد، كيف للجلاد أن يكون حارسا لتحقيق العدل. كيف للذئب أن يرعى الغنم. هذا ما أراه في معسكرات يحتجز فيها الناس. افتحوا الحدود وارفعوا السياج والرصاص المهدد للناس، واتركوهم يختارون أين يعيشون وكيف يحققون هذا العيش. كنت

أدافع عن الجبهة في الصحراء ضد النظام. الآن، أرى أن الجبهة تحارب من أجل نظام آخر. وبقي الناس في حلبة اللعب بين بين. اتركوا الهواء يخترق الرئات، والسماء تسع القلوب والعقول.

و في البيان، أنتقل إلى القضية الفلسطينية وأجدد بأن الشعب الفلسطيني مظلوم ويمارس عليه الظلم وسادية السياسة المتلذذة بآلامه. أحرّم الحق على نفسي ما دام هذا الشعب مظلوما. فمن يمتلك الجرأة لكي يكون صريحا في الموضوع؟

كم من اليهود رفضوا عمل الصهيونية لأنهم في منأى عن الأشكال المَرَضية، هم في حالة سوية. وكم منهم عانى من ضغط الصهيونية وقاوم طرحها وأدى ثمن رفضه لها. لكن الصهيونية، تبقى مثل كل حركة عنصرية متطرفة مُقْصية، إما معنا أو ضدنا... فقد تمارس الإبادة على ذاتها إذا رأت مخالفة لعُقَدها المرضية. وتلك مرحلة قصوى داخل الشخصية المَرضية.

نتساءل في الأخير عن استغلال ملف حقوق الانسان وحسن وصف وتشخيص الداء، لكن وصف الدواء أُسيء استعماله وتقديره، حتى يبقى في خدمة مشرفي مختبرات هذا العالم البشري الحالي. هكذا يكون التشبيه البسيط المقرب لهذه الحقيقة هو الهاجس الاختباري والتجاري الذي مورس كقيم على الشعوب مع انتشار أنفلوزا الخنازير مثلا. كذلك الأمر في تشكيل الرجعيات الجديدة، أصبح معها التحرر من قيود مظالم التاريخ طريقا لارتكاب مظالم جديدة في حق الذات والمجتمع ومجال الحياة التي يُرجى أن تكون تقدمية وليس رجعية. وإلا، فإننا سنقول لعصر الأنوار وفلسفته وداعا وسلاما.

أرى أن الخطاب العالمي اليوم منافق فيما يخص هذه القضية بالذات. سأرسل بيانا آخر لمن يهمهم الأمر هنا وهناك كذلك.

شكرا على صبركم وسماعكم لمُجتَرَحِ كلامي).

ستمر الأيام، وستعرف مداخلة السيد عمران بن يوسف صخبا في ردود الفعل. سيعتبرها البعض عدم حياد من طرف حقوقي دولي. هكذا سيستقيل من مهامه ويعيش حريته كمثقف وأديب. لكنه في الوقت ذاته، ستبدأ حياة جديدة عنده. أصبحت البيانات متعددة. تعددت معها اللقاءات الإعلامية التي ستفصّل أكثر معه في المواقف وفي الموضوع. دخل على الخط ممثلو النظام المغربي في متابعة ومعالجة هذا التوجه الجديد عند السيد عمران. وما دام قد سلك بيان الصراحة العالمية فقد صارحهم بأن بياناته لا تهم النظام ومؤسساته بقدر ما تهم الموضوعية والعدالة الإنسانية. من أجل الشعوب وليس من أجل الأنظمة. فالأنظمة يمكنها أن تشتري الفرد في مواقفه بالملايين، لكن الشعوب تشتريها بالضمير وبالتاريخ. وكان الاتصال على أعلى مستوى داخل بلده. نوّه بالشجاعة وطلب متابعة موقفه وتأييده بقناعاته. آمن الكل بالنسبية والبحث عن المستقبل وعن الحد الأدنى من التحقيق في الآتي. المهم هو مد الجسور وعدم قطع أوصالها والاستمرار في التقارب داخل الاختلاف.

انضافت لوحات جديدة لمشاهد مسرحية (سيرة نورس). عادت صباح من جديد لتعتلي خشبة المسرح برفقته. من جديد، كان إقليم كاتالونيا هو المستضيف. كان المشهد الرئيسي الأخير يضم أبراجا وأسوارا، أشكال زي عسكري يعكس جيوشا متحاربة فوق أبراجها. كانت أجساد عارية وسط الخشبة ضحية القنص المتبادل من أعلى الأبراج المنصوبة. كان التباهي بين القناصة بعدد الضحايا وغنائم كل جولة. النورس يرفرف في كل طلقة. يستعين بمخالب تعيرها له صباح ـ صوت الأطلنتيس المغيّبة ـ يهدم النورس الأبراج والأسوار. يسوّي العالي مع النازل فوق الخشبة. يدعو لإقامة عالم جديد متساو. يدعو إلى اختيار مع الجمهور:

ـ اصعدوا عندنا إلى فوق الخشبة أو لننزل نحن عندكم كجمهور. نهاية المشهد والمسرحية.

تمر السنون وتتطور معها المواقف كما انعكاساتها. كان عمران على علم وعلى حدس بردود الفعل، لكنه كان قدوة لكثير من المناضلين والمثقفين في جرأته ونباهته وحدسه. أصبح أكثر تحررا من المكان والمؤسسات. لم تعد تربطه بالديار الإسبانية سوى علاقات وأنشطة ثقافية، رغم أنه يستفيد من شرعية إقامة هناك. لكنه آثر أن يجعلها حركة حيوية بين بلدان متعددة، خصوصا وأن أوربا تخلق ذلك الإمكان. استفاد من صفة كاتب ومثقف. ترجمت قصصه كما دراساته إلى اللغتين الفرنسية والإسبانية، وكان هناك مشروع ترجمة منتظرا إلى اللغة الإيطالية والإنجليزية. كان لاقتراح السفارة المغربية دور في تشجيعه على اختيار باريس كمحطة للإقامة. ملحق بالشؤون الثقافية، وساهر على برنامج أنشطة فنية وفكرية بين البلدين.

ستشاء الصدف لكي يستقبل عمران من طرف عمران. وسيلتقي بالسيدة وفاء. وقع ذلك بعد استشارات حول إمكانية توفير سكن للدراسة يستفيد منه عمران الحلوي، ابن السيدة وفاء، بباريس لكي يتم دراساته العليا بعد تفوقه في مرحلة الأقسام التحضيرية بالمغرب.

وزن الحرية الذي رأى به عمران بن يوسف موجة وروح السيدة وفاء، زادته فرنسا سحرا وفك ارتباط بهواجس أفكار تملّكته وقيّدته كثيرا. في كل مرة يفكّر فيها في الارتباط بوفاء تستحضره ثقافة تقليدية راسخة في لا وعيه وخطابه الاجتماعي الذي لا يفطن له. يعترف مع نفسه بتخلفه الفكري والموقفي والسلوكي. يقارن بين القيم التي تجمع الأزواج في فرنسا وغيرها من الدول الغربية وتلك التي يحملها من بلده

الممتد مع اللغة والثقافة وليس مع المكان فقط. وصمة العار التي يشعر بها كل من فكر في أن يتزوج بسيدة لها أولاد أو مطلقة. نعم. إنه يعترف بذلك الشعور وقد يخالجه بعض الأحيان. لحظات ضعف وجهل منسيين فيما ترسب ملوثا في دواخلها. هو نتاج واقع وبيئة. كم مرة تم تمرير مثل هذه الأفكار مزاحا أو على سبيل النكتة أو غيرها. كم من مرة تُسمَع الضحكات من الروايات ويكون مفروضا على المستمع أن يُبدي ردة فعل متوافقة مع الثابت القيمي الذكوري والاجتماعي. كل هذا قاومه كثيرا لكي يعيه ويتخلّص منه.

من بين أصدقائه هنا بباريس كانت أسرة صديق فرنسي اسمه هنري لوبلون وزوجته صوفي. هنري أب لابنين وصوفي أم لبنت. اجتمعا وتزوجا وضما الأولاد الثلاثة في عشهما الجديد. أم الولدين وأب البنت شاءت لهما الظروف لكي يتركا لهما أحقية التربية والرعاية.

حرّراه من أفكاره دون أن يستطيع التصريح بها لهما. لم يكن يفكر في إنجاب أولاد. هو ابن الخمسينيات وقد ولجها منذ سنتين. لم يرد أن يجعل فكرة خلافة بِذُرّية. فكّر في خلافته بمشاريعه وإبداعاته. من جديد يلتقي مع الأفكار التي يراها منتشرة بعاصمة النور باريس. يسميها بالنور وينسبه للعقل أولا. يضحك لعواصم متلألئة بالمصابيح لكن العقول مغلقة فيها كما ظروف الحياة مختنقة وجحيم، وإن كان هذا الظلام ينتشر حتى في الغرب ليضيق على النور امتداده.

تعلّم الرقص والعزف على الغيتار وتابع دروس المسرح والأداء والإخراج له. أصبحت حياته فعلا متميزة لكنها ناقصة يلزمها ذلك الملء الوجداني والأسري. لِمَ لا. الزواج بوفاء والاهتمام بالولدين الشابين الآن. حرية اختيار لا يناقشه فيها أحد ولا يسمح له بالتطرق إليها بشكل متخلّف. احتاج إلى قراءات متنوعة حول فلسفة الذات. قرأ

حول مقولة سقراط (اعرف نفسك بنفسك). قرأ للدراسات النقدية المرتبطة بها. ناقش أصدقاءه وعمّق اختبارات ذاته. كل هذا من أجل قرار حاسم أراده لعلاقته مع وفاء.

لقد كانت سنة 2007 سنة مثيرة في أحداثها. بين كل المشاريع والعلاقات، اختار الارتباط بالسيدة وفاء وتبني التكفل بدراسة عمران وأخته صُبْح حين تحين لها فرصة الدراسات العليا. زواج خلق الحدث في تتبع مسار حياة مناضل ونورس حلّق بين أبراج المدن وخارج سياج كل المرجعيات إلا ما كان من مرجعية الحرية التي آمن بها كمقدس يبجله ويعظمه.

يجلس في المساء وبجانبه وفاء. يطل من شرفة الشقة بباريس 16. أمامه في زاوية الشارع كنيسة القديس يوحنا دو شانتال، والمحيط غير المرئي معالم وآثار تشهد لتاريخ حافل يجذب له السيا ح والزوار. في جانب من الشارع مطعم ومدخل الميترو النازل أسفل. والأنوار تمتد لتتداخل بأشعتها فتُلَوّن الرؤية ببريق يسحر العين الراقصة بين السماء والأرض. يرفع رأسه للقمر ويبتسم للقدر. يقرع كأسه لكلمة الحرية والحب وسيدة الحكمة كما أصبح يسميها.

ـ لمن هذه الابتسامة يا عمران؟

ـ في الحقيقة هي ضحكة محبوسة، ساخرة من ذاتي. تريد أن تنفجر.

ـ اشرح لي أكثر ماذا يدور في كونك الذهني.

ـ كنت أحارب أعداء خارجيين. الآن مع هذا الوضع الجديد أصبحت أحارب دواخلي. تعلمين. لقد كانت شخصية دون كيشوت دي لامانتشا على صواب فيما

رافعت به وقاومته. كان صراع الشخصية مع دواخل مكبّلة. جل الدراسات تعترف بدور سيربانتيس، الذي اغتالت شهرتَه شخصيةُ دون كيشوت، في تحرير شخصية إنسان القرون الوسطى من قيود الخوف والإحباط. برغم اختلاف السياق والمرجعية الدينية والحضارية آنذاك.

ـ أراك في حيرة من أفكار أو إنني أنا التي لم تفهم بعد.

ـ قيدُ تخلُّفٍ كان يكبّلني لن أشرحه لكِ. على الأقل الآن. أما مناخ محاربة الدواخل فإنني أعيشه هذه الأيام أو هذه المرحلة كإنسان باريسي بكل ما تحمله باريس من رمزية ثقافية. لن أقحم الخطاب الإعلامي المضلل لحواس وأفهام الناس. إنني أتكلم عن باريس الشعراء والمثقفين والفلاسفة الذين رسموا للحرية طريقها الإنساني والتاريخي. عمران بن يوسف تسكنه ثقافة المجتمع الذي أنتج تاريخ شعبه. تلك التفاصيل الصغيرة التي لا يدركها الوعي. جزئيات المواقف والتعابير بالقسمات والأصوات والحركات، كلها تختزن موروثا يخدعنا في الادعاء بأننا متحررون. باريس التي أمامنا شارع معبد بالحرية والمساواة، تتجاوز كل تخلف وكل رجعية ولو كانت فرنسية. باريس ريح وروح حلّت فيها ذات عمران بن يوسف. هذا الاسم الذي يحمل دلالة الأنبياء والقديسين يحتاج إلى طهارة جديدة. إنني أضحك يا وفاء على ذاتي التي أصبحت محبوسة بتغطية الأحداث وقراءتها من خلال ذاتي، من خلال الكتابة وضرورتها. من خلال المسرح كذلك. لعبة انعكاسية بين الخشبة والواقع أصبح لها سفراء في دواخلي.

ـ وبلدُك يا عمران. ما موقعه من كل هذا؟

ـ أنت بلدي الذي أؤمن به. تتذكرين ما اكتشفته معك عبر الهاتف منذ سنين.

ـ آه. تلك التفاحة النيوتونية... هه... ما بها؟

ـ إنني أعيش الزمان لا المكان. أبحث عن أفكاري وقناعاتي لكي أحقق لها حياة ولكي تنعم بحقها في الوجود. كم من فكرة لم تنضج عندي إلا مع السفر ومع تغيير المكان. لذلك تجدينني أصارع وأُسرِع مع الوقت لكي أعيش هذا الزمان. فلسفة العمر خائنة يا وفاء.

ـ بطول العمر حبيبي.

ـ بل بحبك وقربك. أنت واقعيتي التي حاسبتني على المنفلت في مقاربتي للحياة. أما باريس، فهي الحمامة التي سلختني وعرّتني من أنانيتي الداخلية. هنا ألمس أن الإنسان المدني والحضاري يستطيع أن يتحقق. أما هناك، فالأمر صعب لأن شعوبنا ما تزال مكبّلة ومقيدة بأغلال. ناعمة بأقفاص مزينة بعذب الكلام ومعسوله. أراكِ أنت الإلهة المعشوقة والمعبودة للفكرة والمبدأ. سأخدم بلدي من هنا، وسأستمر في قضيتي. ما زلنا في حاجة هناك إلى تطهير المناخ من تلوث السياسة وفساد المؤسسات. لقد كنت حاضرا في منتدى الحوار السياسي والحضاري ببلجيكا شهر فبراير من سنة 2003. ورغم أنني كنت مدعوًا من طرف مؤسسة حقوقية أوربية، فقد كان فضولي مرتبطا بمزيد من فهم لسياسة السيد عبدالرحمن اليوسفي التي بقيت غامضة في ذهني. خالفته في تقديرات المرحلة والعمل السياسي واختيارات الكتلة وتجربة التناوب. لكنني أردت أن أستفيد من تجربته هاته. على الأقل هو كان جريئا وقادرا على بصم التاريخ بما يراه مناسبا وبما أقنع به محيطه وحلفاءه. ما يزال اختلافي معه قائما. لكنني أحترمه كثيرا. استفدت من كلمته وبيانه التاريخي الذي حضّره بعناية مركّزة. غدر التعهدات من طرف الرفاق ومن طرف الوفاق. هه... مَن توافق معهم على المرحلة الانتقالية.

أنا يا وفاء لست مؤسسة كبرى. مجرد فرد لا يملك تأثيرا كبيرا. رغم ما قد ترينه من علاقات وأنشطة وإنجازات إبداعية فإنني لا أملك عناصر التغيير لدواخل بلدي. جيلنا أدى مهمته في اللحظات الحرجة تاريخيا. جرّب خياراته. الآن نساهم في تهييء جيل جديد. هذا دوري الآن.

في صباح مضبب عَمَّ لونه سماء باريس، كان الطقس باردا نهاية شهر نونبر. فصل شتاء يعد بمرحلة تشرنق لجميع عناصر الطبيعة، وباريس محصنة ببناياتها وتدفئتها وحركتها اليومية.

كان يوم 23 نونبر في ثلاثاء أسبوع من سنة 2010. تحرك الهاتف الخلوي بدبدبته الكاتمة للصوت. لم يكن هناك موعد مبرمج للعمل هذا الصباح. طقس قهوة وجرائد ومتابعة لأحداث العالم. لكن المكالمة التي أتت من الملحقة الثقافية للقنصلية أثارت فضول عمران بن يوسف. ربما هناك اجتماع أو ضيف أو أمر مستعجل لكي يخبروه به.

كانت وفاء قد عادت بعد عطلة نصف الدورة الأولى إلى مدينة تطوان لكي تواصل تدريسها لهذه السنة. وقد حافظت على تقسيم السنة بين تطوان وباريس، تذهب خلال العطل إلى فرنسا وتعود لتطوان من أجل العمل. وضعية تنتظر حل التحاق أو ما شابه من طلب تقاعد نسبي. والمضحك أن الجل اقترح عليها الانقطاع عن العمل وعدم الالتحاق في بداية السنة الدراسية. استغربت لهذا الاقتراح، لكنها حينما سمعت التفسير للمسألة علمت بأن القانون أعمى وأن الإنسان هو المحتال على العدل والقانون. تساءلت: كيف يعقل أن يستفيد المتقاعد نسبيا من اثنين في المائة، بينما المنقطع عن العمل يستفيد من2 ,5؟ هذا دليل على تخلف في التشريع وعدم مواكبة منطق الواقع.

...

ـ ألو، صباح النور.

ـ صباح النور سيد عمران. أعتذر على الإزعاج، هناك رسالة وصلتك هذا الصباح تثير بحجمها السميك. أردت أن أخبرك بها. إذا كنت تنتظرها فهي فوق مكتبي الآن.

ـ شكرا لك سيدة مليكة. سأمر في فترة بعد الظهر لاستلامها.

داخل بذلة النوم القطنية قام متثاقلا في حركته. بتلقائية اعتيادية جعل قدميه داخل البابوش وشغل جهاز القهوة الأوتوماتيكي. جولات بصرية طفولية داخل الغرفة والممرات ثم عودة إلى المطبخ حيث الرائحة السحرية للبُنّ بدأت توقظ حواسه وذهنه. جلس فوق الأريكة الفستقية التي أَلِفَها يوميا في الاسترخاء والقراءة ومشاهدة التلفاز بعض الأحيان.

مع الرشفة الثانية بدأت التخمينات حول الرسالة أو الطرد، هل هو كتاب جديد مُهدى له من طرف صديق أو صديقة... تعددت التخمينات إلى درجة أنها فتحت احتمالات متنوعة لم يكن على استعداد لمجاراتها حتى لا تعتم صفاء ذهنه لهذا الصباح. ما تزال هناك شخصيات تطارد ذهنه من أجل أن تستقر في متن وسرد قصة بدأ في تأليفها بالأمس. ربما سيحوّلها إلى مشروع رواية إذا أسعفته مفاجآتها.

خلال المساء، فتح الطرد الذي حمله معه وهو في سرعة من أمره كما من انشغالاته بحيث لم يستطع اكتشاف فحواه إلا حين رجوعه إلى شقته. كان التوقيع للرسالة باسم عبداللطيف باهوش.

بِوَقْع المفاجأة بوقع الصدمة. لم يَدْر عمران بن يوسف كيف مرت أفكار كثيرة ومدد زمنية طويلة وتحاليل جدلية معقدة في ثوان قليلة جدا. كلها عناصر وقعت دفعة واحدة وكان الذهن يخزن الآتي الذي سيقع ووقع. كأن عمران يعيش المستقبل في

الحاضر والحاضر في الماضي، وهو الذي يعتبر نفسه يعيش داخل الزمان بدل المكان. ها هو وكأنه أصيب بصعقة كهربائية. تعرقت مسامه بمجرد قراءة الاسم: عبداللطييف باهوش.

يتذكر أنه لم يوردْ أي حوار معه ضمن مؤلفه الذي أصدره بالديار الإسبانية. **سيرة منفى، اجتراح الذات على حبل غسيل من نار**، تضمن اسمه نعم ضمن لائحة المجموعة التي رافقته في رحلة الجبل والبحر. لكنه لم يخطر بباله أن يبحث عنه وعن جديده بعد اختيار السيد عبداللطيف المنفى بمجرد خروجهم من السجن المركزي. شعر بتأنيب ضمير وتفريط في مفقود. تذكر ما وعد به صديقها حكيم العمراني. لمْ يفِ بوعده، على الأقل مع عبداللطيف باهوش.

بماذا سيبدأ؟ هل بقراءة وتفحص محتويات الطرد أم بالاتصال بحكيم ورفاق المجموعة بالمغرب؟ بمن بقي منهم على قيد الحياة.

(رفيق الدرب الذي كان مضيئا بدماء الشهداء.

الصديق عمران بن يوسف.

من عبداللطيف باهوش

إلى من شاركت معه درب النضال والاعتقال

لم أنوِ في يومٍ من الأيام أن أراسلك بهذه الطريقة. كان اختياري للمنفى انتظارا لمواقف سياسية ستكون في المستقبل لمجموعتنا. ربما لم نتقاطع الطريق، لكن العهد المأخوذ على مرجعيتنا المشتركة يلزمنا بالتذكير بما صرنا عليه وبما صارت

عليه البلاد. ولعلك تدرك اليوم ومنذ خروجنا لاستنشاق هواء الحرية، وقد مرت أزيد من تسع عشرة سنة الآن، أننا نعيش مرحلة جديدة تحتاج منا إلى مراجعة الذات والقيام بنقد ذاتي في نفس الوقت.

كل واحد منا جرّب رهانات واختيارات توافقت مع قناعاته، فمن منا كان على صواب أو أقرب لتحقيق مبتغى النهج الذي رسمناه في مشيم المعتقل والزنزانة؟ من منا أضاف لرصيد الشهداء فورة دم حمراء يوقع بها على حرية حقيقية ومساواة ملموسة؟

و أنا أتابع تألقك الثقافي وإصداراتك الأدبية، أغبطك على هذا الحلم النورسي الذي حققته. لكنني في نفس الآن أعاتبك وأحاسبك على تراجعاتك المبدئية ومهادناتك التوافقية مع من كان سببا في محنة شعوبنا وليس ذواتنا.

أسألك حول نوع الإيجابيات التي تحققت مع المرحلة الجديدة والتعايش الجديد. ألم تكن لعبة شطرنج اقتيدت لها عقولنا ومواقفنا فتنازلنا عن قواعد نضالنا الداعية إلى الكرامة والحرية والمساواة؟ كل التقارير الدولية والمحلية تشير إلى تراجعات خطيرة على جميع المستويات، اقتصاديا وحقوقيا وسياسيا، إلى مرحلة الملهاة والخديعة والضحك على الذقون بديماغوجيات متطورة وذكية جدا.

لم أشأ إزعاج هنائك الجديد. هي غيرة على كُلِّيتنا الواحدة وذاتنا المعنوية المشتركة. أرفق هذه الرسالة بصور وبسيرة لمناضل جعلتَه قدوتَك في مرحلة وسيرتَك التي تمناها. كما ستجد تقريرا من 67 صفحة أعالج فيه الوضع. وكم كانت التقارير منطلق مراجعاتنا والتزاماتنا.

يعتبر السيد عبداللطيف باهوش عضوا من مجموعة المعتقلين الذي بقوا على خط التوثيق والتذكير بالبيانات القديمة والالتزامات الرفاقية فعلا. منذ استقرارهم بالسجن المركزي آثر وضع نهج نضالي تصعيدي كل مرة. كان الجل يحترمه لجديته وصرامته. هو طالب فعلا، لكنه موظف في نفس الآن بشركة محاسباتية بمدينة مكناس. كان تنقله بين مكناس وفاس يزاوج بين الدراسة والعمل. وكان حضوره للمخيم الصيفي الاضطراري هو ما ألقمه في مرحلة بين الجبل والبحر، خارج العيش السليم للبشر.

علاقته بالمرجعيات مقدسة وحِرفية في الحفظ والقراءة والتأويل. مغرم بالتجربة الصينية وتواق إلى ماركسية لينينية في نفس الآن، لكنه في حيرة من أمره حين النقاشات، بحيث إنه يرفض حلول أي مرحلة انتقالية قد تقترح لتطبيق الماركسية اللينينية بالمغرب. كان هذا التشدد يخلق له خلافات وكأنهم على ثانية من تنزيل برنامجهم النضالي في حياة المجتمع. كان عبداللطيف باهوش ممن استعصى على المجموعة إقناعها بالتوافق مع إدارة السجون والوزارة الوصية على المعتقلين السياسيين. رفض أية مساومة ودعا إلى محاكمة المسؤولين وزجهم في السجن وتحرير الشعب من قبضة المستغِلّين... اقترحوا عليه تأجيل مناقشة هذه التفاصيل حتى الخروج من السجن. كون المسألة تاكتيكية فقط. وقّع على مضض وتحت ضغط نفسي انفلتَ منطقُه حينها وتراختْ صلابةُ موقفه. لكنه بعد الإفراج عن المجموعة في بداية التسعينيات بدأ في البحث للذهاب خارج المغرب. وجد ضالّته في موجة الهجرة السرية التي أكلت حيتانها أجساد وأبدان الشباب والأطفال. عبر إلى الديار الإسبانية وداخلها كان طلبه بحق اللجوء السياسي.

بعد انقطاع دام لمدة طويلة، ها هو يعود برسالة مفاجئة من داخل العاصمة باريس لصديق قديم في درب النضال والاعتقال، لعمران بن يوسف.

ما تزال الندبة تسم جانب ذقنه الأيسر. أثر قديم يوقع لنتيجة دفعة وحشية أثناء لحظات التعذيب التي عاناها في المعتقلات السرية يوما ما خلال سبعينيات القرن العشرين. كان عبداللطيف باهوش يكبر المجموعة سنا بستة أعوام. هو الآن سيقتحم الستينيات من العمر ببنية نحيفة وعينين دائمتي النظر إلى أسفل. غضُّ بصرٍ ورثه عن تربية طفولية يجعل كلامه ينوب عن النظر في تبليغ الرسالة، وخجل تكشف من خلاله اندفاع الشخصية حين الكلام لقول كل شيء.

بدلة سوداء ومعطف مفتوح يخترق لونَهُ البنيّ الداكن شالٌ رمادي. كان لقاؤهما تنقلا لعمران بن يوسف حتى الضاحية الشمالية عبر محطة الميترو في مقهى الباحة. تعانقا اشتياقا لصداقة ومدة من عدم اللقاء. جلس السيد عبداللطيف لمدة نصف ساعة قبل أن يلتحق به عمران بن يوسف في الموعد المحدد. الساعة تشير إلى الرابعة والنصف، كان خلالها السيد عبداللطيف يتابع عبر الشاشة الصغيرة بجانب المقصف حدث مرور صحن فضائي بجانب برج إيفيل ليومه الأربعاء 24 نونبر. بدت السماء بغيوم متفرقة وكست الشمس السحب بلون قرمزي في انتظار أفولها وكتمها لسر هذا الخبر الذي سُرَّتْ له باريس وعشاقُ أخبارِها عبر العالم.

حينما رفع عينيه لرؤية هذا القادم بخطاه الهادئة من مدخل المقصف، كانت الابتسامة ترتسم على محياهما. لم يعلم السيد عمران بأن ابتسامة السيد عبداللطيف انعكاس ساخر لما تابعه. يرفض كل إشارة لما هو فوق طبيعي أو خيالي. يعيش واقعية حادة تحرم حتى مشاعره من التعبير عن أمنياتها الحالمة. هكذا يعرفه عمران ويعرف شخصيته. تطابقت مهنة المحاسبة مع تدقيق كل خطاب أو تحليل وضبطِ جُمَله

وحروفه ودلالاته. لذلك كان عمران بحدسه مستعدا لكل اللوم والانتقاد الذي سيسمعه من رفيقه القديم السيد عبداللطيف.

ـ سندويتش ميرجيز سي عمران؟

ـ لِمَ لا. لنجعله بداية الاحتفال بهذا اللقاء.

كانت أكلة سريعة ورافقتها قهوة المساء الخفيفة، لكن الرفيقين احتفلا بعد ذلك للقائهما بمطعم آخر. هذه المرة ذهبا إلى وسط المدينة باريس. تبادلا الكلام حول الأصدقاء والمعارف. تحدث كل منهما عن مساره الشخصي وسأل بالمقابل عن جديد الآخر. وطبعا سيتحول هذا المعتاد من الكلام لكي يتشعب في خصوصيات جدالية تعتبر كالملح بالنسبة للطعام. فقد كانت السياسة وتاريخها مسؤولية حاضرة في خطابيهما. كان العالم بأسره داخل طبخة النقاش وتورّدت معه الخدود بفضل كؤوس الخمر المعتق الذي تناوله الصديقان.

فبعد أن طال الغياب وعدم رؤية أحدهما الآخر لمدة تسع عشرة سنة، ها هو اللقاء يحيي المحطات ويبدأ في المحاسبة، وكأنهما مسؤولان على مسار سفينة خلال رحلة الزمان في محيط المجتمعات وشعبها الذي ينتميان إليه.

يتأمل السيد عمران صديقه عبداللطيف. في لحظات صمت تخللت الحوارات المتنوعة بينهما، كانت هي الفرص المتاحة لحوار الذات مع الذات بموازاة حوارها مع الآخر. يبتسم ويجعل عبق الورد يسري في الكلام رغم الاجتراح بأشواك الوادي المحيطة به. كل درب وَلَجَاهُ كلامًا احتضن نقيضَه تحليلا. ما لا يقالُ قالَه الصمتُ.

ما تحفَّظَ عن البوح به ديبلوماسية كان الخاطر ظلا معنويا ساخرا من الطرفين. على الأقل، هذا ما شعر به عمران بن يوسف خلال سهر هذه الليلة. انتظر اللوم الذي ألِفه من عبداللطيف. ربما كان يلوم نفسه في كل محطة معه. فكل قرار اتخذه عمران كانت معه القناعة مخدوعة باليقين وبعيدة عن إرضائه. لكنها الحياة وتحديات الزمن والمستقبل.

لقد تسَلّح عمران بما سيهجم به على عبداللطيف. فكّر في طعن هذا الأخير لقرارات العمل الديبلوماسي الرسمي مع السفارة المغربية. قرارات وبيانات الفهم السياسي للعمل الحقوقي الدولي. انخراطاته في عملية الانتقال الناعم لمرحلة سياسية مرتبطة بالانتهاكات الجسيمة لحقوق الإنسان. احتار في كيفية الرد على مرافعة أرواح الشهداء والتي طالما كانت عقيدة عند عبداللطيف باهوش.

اشتعلت نيران داخلية عند عمران، لكن أي شيء من هذا لم يحدث بالحدة المنتظرة ولا بالمحاسبة والمعاتبة أو الإدانة المرتقبة. هل تغيّر طابع ومزاج السيد عبداللطيف؟ هل تبدّلت قناعاته ومواقفه السياسية؟ كلها أسئلة اختمرها اللقاء بينهما والذي دام ليومين، استأذن بعدها السيد عبد اللطيف في الذهاب والالتحاق بمكان إقامته ولجوئه الجديد بمدينة لوزان السويسرية. في الحقيقة لم يكن لجوء بقدر ما كان استقرارا اختياريا ما دام قد حصل على الجنسية السويسرية. ما دام السيد عبداللطيف قد شرح ما فيه الكفاية مسارات حياته. لكن عمران كان يرتقب كذئب هذا المفاجئ الذي سيحاسبه. وسرعان ما اكتشف أنه محاسِب نفسه.

بعد اللقاء، اكتشف عمران بأنه مقيد نفسه وذهنه بمجموعة من الأحكام الخاطئة. ولى زمنها وهو ما يزال يعيش في ماضيها. وفُتِحَتْ مرايا للنظر جديدة لخبايا الذات. احتاج لمناقشة المسألة بعمق، مؤمنا بأن التواصل والنقاش هما مفتاح التشرنق

الفكري المتجدد والفاتح لآفاق التطور دائما. اختبر حواره مع عمران الأصغر. التقاه في نهاية الأسبوع. حاول جعل حوار للأجيال وعرض عليه قصة لقائه الجديد مع صديق قديم.

عمران الحلوي. في رؤية عينيه شَبَه لأمه. في رؤية قامته وبنيته ملامح شبابية يتخيل عمران بن يوسف من خلالها طيف المرحوم أبيه. لقد أراد عمران بن يوسف أن يبقى وأن يعرض صورته القديمة أمام عمران الحلوي. منذ تعرّف عليه كصديق للعائلة ثم كمتقدم للزواج من أمه، تبلورت صورة رمزية للمناضل الذي ضحى من أجل وطنه. احترم خلال كل ذلك ابنُ وفاء رغبة أمه. كانت التربية التي تلقاها مع أخته صُبْح تجعلها يحترمان شخصية أمهما ويؤمنان باختياراتها وقوتها. لذلك وجدا امتدادا لهذه الخيارات في الوضعية الجديدة التي أصبحا عليها. ذلك أن مناخ باريس الثقافي والاجتماعي ساعدهما على تقبّل التعايش مع زوج الأم. ولم يكن أي زوج. فلقد تراكمت إيجابيات الصورة الثقافية والفنية والأدبية. تابعا مسرحيته لمرتين على الأقل. وما دامت مسرحية متجددة ومضيفة كل مرة لعناصر جديدة في البوح والتشكيل فوق الخشبة، فقد اعتبراها كتابا مفتوحا لا يكتمل ما دامت الحياة مستمرة.

هكذا عشقا شخصية البطل، وقد كان بالنسبة لهما ذلك النورس الذي يفتح لهما عالم الخيال رغم صغر سنهما. لكنهما الآن وقد بلغا وتجاوزا العشرين من العمر، أصبحا بفضل تعلمهما وتثقُّفِهما المستمر قادرين على التواصل والمناقشة في مواضيع مجردة أو تاريخية ومجتمعية معقدة. يمتلكان المنطق والقدرة على التحليل وجعل ذلك الرابط بين العناصر وملامسة المتناقضات وتفكيكها...

يجلس عمران الأصغر أمام عمران الأكبر. يتصاحبان في غياب الأم. يمتلكان رصيدا من التعارف والصداقة ومن مسافة الاحترام. هذه المرة كان الأكبر في حاجة إلى الأصغر لكي يبوح له بمكنونه. هكذا أراده إذن. فليكن.

جلسة استلت من التاريخ ذكرياته المؤلمة والسعيدة. اجتر فيها ابن يوسف مسار حياته النضالية. استحضر أسماء أصدقائه في درب النضال. استحضر بلباقة شخصية وفاء المتميزة والناجحة في مواقفها النضالية منذ الجامعة وثقافتها الراقية داخل المجتمع. كان ظمأ ابن الحلوي كبيرا لمعرفة المزيد عن سراديب وظلمات وأسرار جبل تازمامرت والسجن المركزي. وها هي الشهادة الحية على لسان معتقل سابق.

ـ زارني خلال هذا الأسبوع صديق قديم من جماعة المعتقل. وقد فاجأني بالصورة الجديدة التي أصبح يفكر بها ويعيش بها. كنت أحمل أفكارا جاهزة وخاطئة عنه، لكنني أدركت بأنني على خطإ. ما استفدتُه حقيقة هو أهمية التواصل لمعاينة اللحظة والواقع والحال والظروف ولسماع رأي الآخر قبل الحكم عليه. التواصل والزيارة يحرقان جهل وبُعد المسافات. فالمجهول يصبح معلوما.

ـ هلا أعطيتني شرحا أكثر.

لم يكن عمران الأصغر متسرعا لإبداء رأي ما. هذه عادته التي تميز شخصيته. يستوعب ويسمع جيدا ويترك للزمن قياس التحليل والاستنتاج. عمران الأكبر يدرك هذا ويعلم إيجابيته ويستغله في مزيد مناقشة وتواصل مع عمران الأصغر. لعبة أصبحت بين الأربعة: صُبْح، ووفاء، والعمرانين، جميلة ومألوفة. أصبح النداء عليهما بالأكبر والأصغر مداعبة ومستملحة مقبولة. أضيفت لهما كلمة السلطان. وحينما تجتمع العبارة يكون تمثيل الانتشاء والتبجيل: تبارك الله على مولاي السلطان عمران

الأكبر. أو هو مولاي السلطان عمران الأصغر. مملكة وجدان توطدت مشاعره وخلقت ألفة جميلة في العلاقة فكانت سعادة عمران بن يوسف في تحقق أمنيته الوجودية التي أرادها، أن يعيش داخل جو أسرة ثقافية وليست جينية وراثية. لكن الحدس يستشعر الانغماس في ثقافة عصر تغْلُبُ في مجتمعات وتضعف في أخرى. فماذا عن الاغتراب عن المجتمع الأصل؟ الاغتراب خلقه البعد المادي المكاني، ينضاف إليه هذا التعمق مع المعيش اليومي في ثقافة الحياة الباريسية، فيصبح اغترابا سلسا ومكتملا. ولعل العمرانين سينخرطان بدرجات في هذا الاستنتاج.

ـ حتى تعلم يا عمران، لا يكون المرء شاعرا بالكمال أبدا. لم أكن مرتاحا لقراراتي بشكل كامل خصوصا تلك التي ترتبط بعالم السياسة. لذلك وجدتني مرتاحا في البعد عنها أفضل. ومجيء هذا الصديق كان مرآة تعكس وضعيتي النفسية بين تقبّل ما يمكنه أن ينتقدني به وما يمكنني أن ألومه عليه. ظننت أنه مثالي وخيالي وطوباوي.

ـ هلا شرحت لي يا عم عمران معنى طوباوي.

ـ عبداللطيف الهاروش... ماذا أقول لك؟ حالم بمملكة مجتمع عادل ومتساوٍ وخالٍ من كل طبقية واستغلال. مجتمع بدون نظام حكم. هو الحلم الشيوعي طبعا. أظنه ما يزال يؤمن به. ولعلنا نؤمن به جميعا. لكن هذا الإيمان يختلف. قد يكون عندي الآن أمنية. أما فيما مضى فقد كان بديلا مرجوا وعقيدة ثابتة في التتبع وطلب التحقيق. فالطوباوية ستعني ضبابية رؤية ومثالية تفكير بعيدة عن الواقع ونسبيته. العالم اليوم أصبح واقعيا وقابلا لنسبية كل الأفكار والسياسات. لقد ولّت المنظومات والنسقيات المطلقة. عندنا المناخ السياسي هنا في فرنسا، تتعايش فيه جل المنظومات، لكنّ الشرعية المقدسة نسبيا هي لإرادة المجتمع...

يسود صمت جميل جلستهما الهادئة. كلّ في أريكته الفستقية يستمع للآخر. يضع الأصغر كفه الأيسر على جبينه ويسترخي مغمضا عينيه. لكنه سرعان ما يعود لفتحهما ومتابعة كلام عمران الأكبر. يضيء هذا الأخير مصباح المنضدة الجانبية ويعود للاستواء في جلسته مستجمعا حواسه من جديد. بحدسه يختبر عدم استسلام الأصغر للرغبة في النوم خصوصا مع انتفاضته من استرخاء وديع، فيتابع كلامه.

ـ تعلم يا عمران، تجربتي في الحياة يمكنني تلخيصها في تشبيه هادئ وبسيط. لو اخترت أنت مظلة تضعها فوق رأسك، تقبض عليها بكامل كفك وأصابعك، لكُنتَ قد فكرت بأنها ضرورية ووقائية لحمايتك من تساقط أمطار سينقلك إلى برودة ثم إلى حمى مقرونة بارتعاش، أو إلى حمايتك من أشعة شمس ستشعر بمضرتها حين إصابتك بدوخة أو آلام رأس. لكن تصوّرْ معي لو أن أحدا أتى وفرض عليك مظلة في كل خطوك ووقوفك، وحجب عنك ما كنت ترغب في أن تراه، أو ما كان ضروريا أن تراه أو تلامسه، أو إنه عرقل خطوك وتسبب في تعثّرك، ما الذي كنت ستختاره أو ستحكم به عليه؟

ـ الحياة مظلات. ربما الكون حقيقتنا المطلقة. وحيث لا نستطيع امتلاكها، نرغب في جزء منها. هو طموح وحق. لكنها الحرية. هي ملح الحياة التي سيكون بها الاختيار.

ـ أنا على يقين بأن ما اخترته ولو بعد استشارة، هو عنصر مهم في تحقيق سعادتك. وتخيّل نفسك اخترت طريقا فسيحا مخضر الجوانب، متلألئ الأغصان، مُشِعّاً بنور الشمس، فجأةً، اخترقتْه ظلال ورياح، زوبعة غطّتْ الطريق. تنازعتَ في المسالك للخروج. مع نفسك، ثم مع الآخرين. وجدتَ نفسك عالقا ومعرقَلا.

ـ سيكون هذا تيها حقيقيا يا عمي عمران.

ـ فعلا هو تيه. هي الحياة يا بني. تأتي محطات فنَتِيه فيها. لكنه لابد لنا أن نختار حتى داخل هذا التيه. ربما الإنسانية بأكملها لم تهتد حينئذ إلى حكمة مناسبة. نُجرّب الطرقات والحلول. نتصارع حول يقين كل واحد منا. هذه الظلال يا عمران، هي كل هذه السياسات المفروضة على الشعوب. وهذه الإيديولوجيا التي تدّعي اليقين والحقيقة فتفرض طرحها على الناس، كما تفرض عليهم أنواع السلم وأشكال الحروب. قد تقودهم إلى نعيم كما إلى جحيم وإبادة... كل هذه الظلال حينما تشعر بها وتعيها، تقول لنفسك: تحرَّري منها. تخلصي من قيودها. أخرجي من أقفاصها... هذا ما أحاول حاليا إنجازه. مع نفسي فقط دون فرضه على الآخرين. لذلك اخترتُ المنفى. هو منفى تحرري وثقافي يضمن لي حرية التفكير والتصرف والاختيار والتجريب في اليومي. قليلون من سيفهمون مثل هذا التصرف من طرفي يا عمران. أريدك أن تكون حرّاً مختارا في قراراتك واختياراتك. كنْ على صوابٍ مع نفسك ومنطق عقلك. ودعِ الأمور تحدث بما تشاء. هذه مفاتيح السعادة ربما.

...

يفاجئهما ويخرجهما من سهرتهما المتحدة في التسمية رنين الهاتف. يبادران إلى ملء الاستفسار مع السيدة وفاء. يعللان سبب هذا المؤتمر الاستثنائي. يتلاشى الموضوع الرئيسي ويغلب التواصل المناسب للاشتياق. الأمر الذي يترك عند عمران الحلوي مزيدا من الغربة في التعرف على عالم صداقة عمران مع عبداللطيف. عالم الأحكام المسبقة أو الخاطئة التي قد يسببها عدم التواصل وعدم المواجهة لكل أمر جديد. على الأقل كان ارتياح عمران الحلوي لهذا الاستنتاج الأخير.

ما يزال طرد السيد عبداللطيف موضوعا بجانب السرير. حينما أراد السيد عمران بن يوسف أن يطفئ مصباح المنضدة لامس غلاف الطرد أو الظرف، استشعر حرارة كهربائية تسري في شرايينه. بحدسه كذلك استشعر فراغات منسية في اللقاء أو في قراءة مضمون هذه الصفحات. استوى من جديد مستندا على وسادتين بدل واحدة. مسح زجاج نظارتيه. أخذ في البداية سيرة وصورة الشهيد جبيهة رحال. تأمل ملخصها وحاول جعل علاقة بفحوى ما ناقشاه أو سبب اختيارها ضمن الرسالة. لاحظ أن صديقه قد جعل خطّاً تحت فقرة معينة:

(في يوم 15 أكتوبر من العام 1979 ستفقد الحركة الماركسية – اللينينية المغربية واحدا من خيرة أبناء الطبقة العاملة والشعب المغربي...

و قد استشهد المناضل العالي الماركسي- اللينيني البارز جبيهة رحال خلال محاولة للهروب من المستشفى(مستشفى ابن سينا بالرباط) بغية استئناف عمله الثوري خارج السجن. لقد وهب رحال حياته لتستمر شعلة النضال والمقاومة للنظام متقدة، تنير درب اليسار الثوري. هكذا سقط الصقر الأحمر في خندق النضال شامخا في صمود وعزة وكبرياء ليلتحق بقافلة شهداء الحرية بأبطالها وملاحمها الخالدة. لقد أدى مهمته التاريخية مبدعا في العطاء ووهب روحه بكل سخاء، سخاء الثوريين العظام)).

يستلقي عمران بن يوسف على ظهره. ينزع الوسادة من تحت عنقه إذ يشعر بتشنج رقبة فوقها. تظل عيناه جاحظتان إلى أعلى حيث انعكاس ضوء المنضدة هندسيا في شكل صحن مستطيل. يفتح داخل مجاله الضوئي المنعكس ذاكرة الأحداث

الماضية. سنة 1979 وشهر أكتوبر، كانت الجماعة المعتقلة قد نُقِلتْ إلى جبال الأطلس. مات بعضهم خلال التعذيب. انقطعت أخبار البعض الآخر. هي بداية رحلة عذاب. الطقس القاري الذي بدأ يزحف ببرودة على فصل الخريف ثم فصل الشتاء. بداية انتقال الآلام من خارج الجسد إلى مفاصله وأحشائه. تحتبس دمعة عفوية على جانب مقلة العين اليسرى. يداعبها في الاستمالة فتتدحرج لتستقر وتنسكب فوق الوسادة. آثار دمع على الشراشيف. بقعة مبللة ومالحة. رائحة منسية من زمن الرصاص. دمعة مقتطعة من سكرات الموت المؤجلة. منبّه سابق لأوانه. هل تريد الموت ندائي ودعوتي إلى خُلدها؟

استنشق هواء مفعما بالسؤال الأخير. وهذا الحنين النكوصي الداعي للراحة الأبدية. رحلة الوجود السرابية الخادعة. الحاجة إلى الهناء المطلق. هذه الذات المنهكة والمتعبة. هذا الفراغ الكبير الذي هو الهوية الحقوقية الكلية المتبقية. هذا الانسلاخ للذات عن شجرتها الكبرى كفرع يابس منهك ومعدَم الخلايا والحياة، تساقطت أوراقه وأغصانه فما عاد سوى خشب بل حطب معَدٍّ ومنتظر للاتقاد.

يتقلب برأسه جهة اليمين. أوراق أخرى تدعوه لإعادة التصفح: ما تزال عندك مهمات يا عمران في هذه الحياة قبل الممات، ولو كانت للحظات، فعليك أن تقرأ هذا التقرير من جديد والمشكّل من 67 صفحة.

و كأنه روح جنية انتظرت اختلاءه بنفسه وانعزالها وذهاب من يملؤون حيز حياتها الاجتماعية، تريد أن تسكنه في لياليه الانفرادية المنسية. آهٍ. لا أحد يعلَم بأن عمران بن يوسف يعيش حيوات داخل واحدة. وأقساها تلك المعتزلة لاجتماعه وعاطفته. بنَت عالمَهَا غرفُ الاعتقال والزنزانات الباردة والرطبة، وروائحها القاتلة ببطء والخالية

من كل عطر إنعاش. إنه فراغ الجحيم الذي أدى ثمنه من أجل حرية منفلتة عن التحقق.

((الحرية سراب منفلت. كلما حاولتُ القبض على أفقه تبخر وراقص أوهامي وضحك ساخرا من يقيني فابتعد مسافة وهمٍ جديد وظمإٍ مُجْهِدٍ جديد.

الحرية ! حلوى أغلال توقع الطفل الساكن فينا في تغرير الاشتهاء وحلاوة المذاق.

الحرية، كمال منعدم، وعدم مكتمل في نهاية السباق.

يسألونك عن الحرية، قل هي راحة خلاص في نهاية السباق.)).

خطّ هذه السطور على ظهر ورقة من ملف السيد عبداللطيف باهوش. أطفأ نور المصباح وخلُدَ لنوم عميق ربما كان مؤجّلا منذ الأزل، ينتظر هذه اللحظة في توقيع بيان الفصل بين الحياة والموت.

للغد، بعث بما كتب وما أضافه كملاحظات للممثلة المسرحية والفنانة صباح، كذا لمخرج المسرحية المنبعثة من رماد الزمن النورسي (سيرة نورس). ربما هي البيان الأخير والفصل الأخير الذي سيتضمن رحلة النورس في البحث عن الحرية والتخلص من أغلال الأقفاص. سيتلقى بعد أيامٍ ردّاً إلكترونيا يتضمن تصوّرا لمشهد جديد ينضاف إلى المسرحية دائما. يقترح عليه المخرج السيد عزيز زكرياء مشهد أقفاص. واحد وسط الآخر بعدد مشاهد وفصول المسرحية. هذه المرة سيكون حضور نورس حقيقي من لحم ودم وريش ونداء. وحيث يظن الإنسان أنه الوحيد من لحم ودم. أنه الوحيد الذي تكون النفس والحياة عزيزة عليه. سيبدأ المشهد

بمحاكمة المخرج. هذا الأخير سيتحول إلى المسؤول عن النكبات والاعتقالات وأقفاص الحياة. سيد الاختناق. هكذا سيتم نداؤه وتسميته فوق الخشبة.

ربما عاش ويعيش السيد عمران مناخ المشاهد بشعور وإحساس حقيقيين في حياته اليومية والمعيشية. ربما يكون الصعود فوق الخشبة مجرد تنفيس لضغط حمولتها.

لم يعدْ يدري في لحظاتٍ أيُّها الحقيقي من المجازي، مسرح الحياة أم حياة المسرح. يؤجّل الحسم في الجواب على السؤال ويترك لصفحات التقرير ال67 ترك وقعها وأثرها في قراءته لها كيفما تشاء.

سينتظر مرور فصل الخريف والشتاء. سينتظر حتى شهر يونيو في الحقيقة لكي يعود لنفض الغبار عن كل هذا الوقع. وخلال هذه المدة كانت الحياة تأخذ شكلا من أشكالها المبتغاة قدرا واجتماعا وثقافة وأدبا وفنًّا وحياة.